الفتنة الطائفية... متى وكيف ولماذا؟

دكتور محمد عمارة

نشر
صحيفة المصريون
http://www.almesryoon.com

إعداد
موقع الإسلام والعالم
http://www.islamegy.com

مقدمة صحيفة المصريون

كتاب " الفتنة الطائفية.. متي وكيف ولماذا؟" هو أحدث وأخطر كتب المفكر الإسلامي الكبير الدكتور محمد عمارة. تحدث فيه عن أسباب وملامح التوتر الطائفي في مصر، ثم عاد بجذور القضية إلى الغزو الفرنسي النابليوني لمصر ومحاولة الاستعمار الفرنسي توظيف الورقة الطائفية عن طريق اجتذاب جماعات قبطية عميلة، ثم وقائع المؤتمر القبطي الذي رعاه الاحتلال البريطاني بعد ذلك، ثم تطور الملف بعد تنامي المخطط الامبريالي الصهيوني لتفتيت العالم العربي والعالم الإسلامي، مع وقفة مطولة أمام لعبة الأقليات في تمزيق النسيج الوطني، ثم تحدث عن التطورات التي لحقت بالكنيسة المصرية وكيف تحولت إلى دولة طائفية عنصرية وقد رصد في هذا الملف الخطير ملامح التنظير للمشروع العنصري للإحياء القومي القبطي، وكيف وصل هذا المشروع إلى حد الانقلاب على معالم المسيحية والرهبنة، كما تحدث الدكتور عمارة عن الثمار المرة لما أسماه "الحلم العنصري المجنون" موجها نداءا إلى عقلاء وحكماء الأقباط المصريين أن تكون لهم كلمتهم ونضالهم من أجل حماية الكنيسة الوطنية أولا من هذا المنزلق الخطير، ثم حماية الوطن نفسه من توابع هذا الحلم العنصري.
كتاب الدكتور محمد عمارة الجديد يضع الأصبع على موضع الجرح بصراحة ووضوح المشفقين على مستقبل البلد، بعيدا عن المجاملات، وبعيدا أيضا عن المساجلات السياسية أو الدينية المتعصبة من هنا أو هناك.

المصريون
2008 - 10 - 14

1- هذه هي مصر

كانت مصر ـ منذ فجر التاريخ الإنساني ـ منارة للتوحيد الديني.. وللمدينة والحضارة.. ففي بروعها ـ وعلى عهد آدم ـ عليه السلام ـ بعث الله نبيه ورسوله "إدريس" ـ عليه السلام ـ الذي كان ثالث الأنبياء ـ بعد آدم وشيث(1) ـ.. {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً . وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً} (مريم: 56 - 57)..
وكما أرسى إدريس ـ عليه السلام ـ قواعد التوحيد الديني، بمصر ـ منذ فجر التاريخ ـ كذلك أقام قواعد العلم والحكمة والمدنية والحضارة.. وبعبارة "ابن جلجل" (بعد 372 هـ ـ 982م) : "فلقد رسم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها.. وعلّمهم العلوم. وهو أول من استخرج الحكمة، وعلم النجوم. فإن الله ،عز وجل، أفهمه أسرار الفلك وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب"(2)
فارتبط التوحيد بالمدنية والحكمة والحضارة في تاريخ مصر وتراثها منذ فجر التاريخ.
ـ وفي مصر، عاش عدد من الأنبياء والمرسلين، الذي جددوا عقيدة التوحيد في تاريخ المصريين القدماء..
ومن هؤلاء الأنبياء والمرسلين أبو الأنبياء إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ الذي جاءها في عصر الهكسوس (1675 ـ 1580ق.م)..
وكذلك يوسف ـ عليه السلام ـ في عهد الأسرة الخامسة عشرة ـ التي بدأ حكمها سنة 1675 ق.م ـ وأبوه يعقوب، وبنوه ـ عليهم السلام ـ ..
كذلك، ولد ونشأ وبعث في مصر موسى ـ عليه السلام ـ وأخوه هارون ـ عليه السلام ـ (حوالي 1200 ق.م).. وعليه نزلت التوارة بلغة مصر ـ الهيروغليفة ـ قبل نشأة العبرة بقرون!..
وإلى مصر لجأن المسيح عيسى بن مريم ـ مع أمه ـ عليهما السلام ـ .. { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (المؤمنون: 50)
ـ وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ لحكمة بالغة ـ قد وصف أول أنبياء مصر ـ إدريس ـ "بالصديق".. فكذلك كان الوصف لإبراهيم: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً} (مريم: 41) .. وليوسف { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ} (يوسف: 46).. ولأم عيسى: { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} (المائدة: 75)..
ـ ولقد ظل التوحيد ـ مع المدنية ـ يشعان على أرض مصر عبر تاريخها الطويل.. يتجددان فيها ليغالبا الوثنية والتخلف اللذين يأتيانها في ركاب الغزاة..
ففي ربوعها ارتفعت مناجاة "أمنحتب الثالث" (1397 ـ 1360 ق. م) لله الواحد الأحد:
"أيها الموجددون أن توجد.
مصوِّر دون أن تصوَّر.
هادي الملايين إلى السبل.
الخالد في آثاره اتلي لا يحيط بها حصر."

وفي ربوعها تجدد التوحيد مع "أمنحتب الرابع" (أخناتون) (1370 ـ 1349ق.م) الذي ناجى الواحد الأحد:
"أنت إله، يا أوحد، لا شبيه لك.
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى، أنت وحدك.
خلقتها ولا شريك لك.
أنت خالق الجرثومة في المرأة.
والذي يذرأ من البذرة أناسًا.
وجاعل الولد يعيش في بطن أمه.
مهدئًا إياه حتى لا يبكي.
ومرضعًا إياه في الرحم.
وأنت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته،
حينما ينزل من الرحم في يوم ولادته،
وأنت تفتح فمه دائمًا،
وتمنحه ضرويات الحياة".(3)

ـ وعبر هذا التاريخ المصري الطويل ـ تاريخ ـ التوحيد والمدنية ـ غالبت مصر العديد من التحديات:
غالبت بداوة الهكسوس.. ودمار الغزوة الفارسية التي قادها "قمبيز" (529 ـ 522ق.م).. والقهر الحضاري والديني والثقافي والسياسي الذي فرضه الغرب الإغريقي ـ الروماني ـ البيزنطي على الشرق، مدة عشرة قروة ـ من "الإسكندر الأكبر" (356 ـ 325 ق.م) ـ في القرن الرابع قبل الميلاد ـ إلى "هرقل" (610 ـ 641م) ـ في القرن السابع للميلاد ـ ..

ـ وعندما نجّس الرومان ـ إبان هذه الغزوة ـ التوحيد ـ الذي جدده المسيح ـ عليه السلام ـ .. رفعت مصر لواء النقاء لهذا التوحيد مع أسقف الإسكندرية "آريوس" (256 ـ 366م) ـ الذي أعلن:
"إن الله جوهر أزلي أحد، لم يلد ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق، حتى "الكلمة" فإنها، كغيرها من المخلوقات، مخلوقة من لا شيء. وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد.. وأن الله قد نجاه من الصلب ـ الذي وقع على الشبيه ـ .."
ولقد ظل هذا التوحيد يغالب شرك التثليث والوثنية حتى ظهر الإسلام، وجاءت الفتوحات الإسلامية (سنة 20 هـ ـ 640م) فحررت المظلومين من القهر الحضاري والديني الذي فرضه الغرب الروماني على الشرق لأكثر من عشرة قرون.

***

* ولقد شهد بهذا التحرير الإسلامي ـ للأوطان.. والضمائر .. والعقائد ـ كل الذين شهدون، ونعموا بآثاره في العدل والحرية والأمن والأمان.. وكل الذين درسوه، بحياد وإنصاف.. فكتب شاهد العيان، الأسقف الأرثوذكسي ـ أسقف "نقيوس" ـ "يوحنا النقيوسي" يقول:
"إن الله، الذي يصون الحق، لم يمهل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى أيدي الإسماعيليين ـ (العرب المسلمين..
ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم.. مرض هرقل ومات..
وكان عمرو ـ (بن العاص) ـ يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام..
ودخل الأنبا "بنيامين" ـ بطريرك المصريين ـ مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم في العام 13 ـ (أي العام الثالث عشر من تاريخ هروبه) ـ وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا "كيرس" ـ (البطرك المعين من قبل الدولة الرومانية في مصر) ـ ..
وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر..
وخطب الأنبا "بنيامين" ـ في دير "مقاريوس" ـ فقال:
"لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهاد والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون.."(4)

* ولقد جدد هذه الشهادة ـ بعد خمسة قرون من الفتح الإسلامي ـ الأسقف "ميخائيل الأكبر" Michael theElder (1126 ـ 1199م) بطريق أنطاكية اليعقوبي ـ فقال:
"إن إله الانتقام، الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يذيل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء.. لما رأى شرور الروم، الذين لجئوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.. ولما أسلمت المدن للعرب، خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها.. ولم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وآذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسان في أمن وسلام.."(5)

***

* ومن علماء الغرب، الذين شهدوا لتحرير الفتوحات الإسلامية أوطان الشرق وضمائر شعوبه، العلامة سير توماس أرنولد (1864 ـ 1930م).. الذي قال:

"إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمالي، في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمة الحديثة.
وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين، كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح.."(6)

* والعالم الألماني الحجة "آدم متز" (1869 - 1917م) الذي قال:
"لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام"!(7)

***

وكذلك، شهد على هذه الحقيقة، من نصارى مصر، في العصر الحديث:
- المؤرخ يعقوب نخلة روفيلة (1847 - 1905م) - صاحب كتاب (تاريخ الأمة القبطية) - الذي كتب يقول :
"ولما ثبت قدم العرب في مصر، شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم.
وأول شيء فعله من هذا القبيل: استدعاء "بنيامين" البطريرك، الذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أمانا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور، فلا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر، وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل، ورد "بنيامين" إلى مركزه الأصلي معززًا مكرمًا..
وكان "بنيامين" موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة، حتى سماه بعضهم "بالحكيم". وقيل إن عمرو لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها. وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منه عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو.
واستعان عمرو في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلاً منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا من القبط، ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك في نوع من الحيرة والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية..
وضرب - (عمرو بن العاص) - الخراج على البلاد بطريقة عادلة.. وجعله على أقساط، في آجل معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد..
وبالجملة، فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان.."(8)

أي أن الفتح الإسلام - بهذه الشهادة - قد :
- حرر الأرض والوطن..
- وحرر الضمائر والعقائد.. وكان "إنقاذًا" و"خلاصًا" للنصرانية الشرقية..
- وحرر دور العبادة - الكنائس والأديرة - وردها إلى أصحابها..
- وحرر الإنسان - وأمن الهاربين..
- وأشرك أهل مصر في حكم البلاد، لأول مرة منذ عشرة قرون!..

* وكذلك، شهد المؤرخ النصراني المعاصر د. جاك تاجر (1918 - 1952م).. فقال:
"إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين، بعد أن ضمن لهم العرب، عند دخولهم مصر، الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب..
ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام وإدماجهم في المجموعة الإسلامية، بفضل إعفائهم من الضرائب..
أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية، فقد يسر لهم العرب سبل كسب العيش.. إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة.."(9)

ذلك هو تاريخ مصر - في التوحيد.. والمدنية -

وتلك هي تقلباته بين قهر الغرب وتحرير الإسلام..
وهذه بعض شهادات العلماء الأعلام ـ من غير المسلمين ـ على التحرير الذي أنجزته فتوحات الإسلام..

***

ولأن الإسلام قد أحيا مصر ـ بعد قرون من الموات والقهر الحضاري والديني ـ فلقد تبوأت مصر مكان القيادة والإمامة والريادة في تاريخ الإسلام.. فخدمت علوم الحضارة الإسلامية في مختلف ميادين تلك العلوم.. وغدت "الكنانة" التي يرابط أهلها على ثغور الإسلام في مواجهة كل محاولات الغزو الغربي، التي استمرت جاهدة لإعادة اختطاف مصر والشرق من تحرير الإسلام..
ـ فمصر هي التي قادت التحرير من الغزوة الصليبية ـ التي دامت قرنين من الزمان (489 ـ 690هـ ـ 1096 ـ 1291م) ـ .. والتي مثلت أشهر ألوان الاستعمار الاستيطاني في التاريخ الوسيط..
ـ وهي التي كسرت شوكة الغزوة التترية (658 هـ ـ 1260م) التي هددت الحضارة والوجود الإسلامي..
ـ وهي التي تصدت للغزوة الصليبية الثانية ـ التي بدأت عقب إسقاط غرناطة (897هـ ـ 1492م).. حتى لقد ذهب جيشها فحارب البرتغاليين على شواطئ الهند سنة 910هـ 1504م ـ ..
ـ وهي التي ساعدت ودعمت ثورات التحرر الوطني ـ ضد الاستعمار الغربي (بآسيا وإفريقيا) ـ في العصر الحديث..
ـ وهي الصامدة ـ المتحينة للفرصة بإزاء الاستعمار الاستيطان الصهيوني على أرض فلسطين..

***

ولأن هذه هي مكانة مصر ـ في المواجهة التاريخية والحضارية بين الغرب والإسلام ـ استحقت أن تعقد لها في كتب التاريخ الإسلامي الأبواب التي تتحدث عن "فضائل مصر".. بل والكتب التي تؤلف تحت هذا العنوان(10)
وهي الكتب والفصول التي رصدت ما جاء، عن مصر في القرآن الكريم .. من مثل:
{ وأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} (يونس: 87)
{ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} (يوسف: 99)..
{ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} (البقرة: 61)..
{ وجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيَةً وآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِينٍ} (المؤمنون: 50)
{ وقَالَ الَذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} (يوسف: 21)
{ودَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ} (القصص: 15)
{ وجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى} (القصص: 20)
{ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} (الزخرف: 51)
{ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وعُيُونٍ . وزُرُوعٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ. ونَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} (الدخان: 25 ـ 27)..

وغيرها من عشرات الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر مصر بالقرآن الكريم..
* ومثل ما روي ـ في فضل مصر ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. من مثل قوله:
ـ "ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرا وذمة" (راوه مسلم)
ـ "ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا" (رواه مسلم)
ـ "إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض، لأنهم في رباط إلى يوم القيامة" (رواه عمر بن الخطاب وأخرجه المقريزي في [الخطط])..

*وإذا كان المسلمون قد فتحوا ـ وحرروا ـ الشام والعراق والخليج وفارس في عام واحد.. فلقد استغرق فتحهم ـ وتحريرهم ـ لمصر خمس سنوات!..
وفي تحريرها هذا شارك من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجيل الفريد الذين رباهم الرسول، وصنعهم على عينه ـ أكثر من مائة من خيار الصحابة.. منهم:
الزبير بن العوام (28ق.هـ ـ 36هـ ـ 596 ـ 656م)
والمقداد بن الأسود (37ق.هـ ـ 33هـ ـ 587 ـ 653م)
وعبادة بن الصامت (38ق.هـ ـ 34هـ ـ 586 ـ 654م)

وأبو الدرداء (32هـ 652م)
وفضالة بن عبيد (53هـ 673م)
وعقبة بن عامر (58هـ 678م)
وأبو ذر الغفاري (32هـ 652م)
ومحمية بن جزء الزبيدي (25هـ 645م)
ونبيه بن صواب ( )
ورافع بن مالك (3هـ 625م)
وربيعة بن شرحبيل بن حسنة ( )
وسعد بن أبي وقاص (23ق.هـ - 55هـ - 600 - 661م)
وعمرو بن علقمة ( )
وعبد الله بن عمرو بن العاص (7ق.هـ - 65هـ - 616 - 684م)
وعبد الله بن عمر بن الخطاب (10ق.هـ - 73هـ - 613- 692م)
وخارجة بن حذافة (40هـ 660م)
وعبد الله بن سعد بن أبي سرح (37هـ 657م)
وأبو رافع ـ مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ( )
ومحمد بن مسلمة (35ق.هـ - 43هـ - 589 - 663م)
ومسلمة بن مخلد (1- 62هـ - 622 - 682م)
وأبو أيوب الأنصاري (52هـ 672م)
ورويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري (56هـ - 676م)
وهبيب بن مغفل ( )
وكعب بن ضنة ( )
ومعاوية بن حديج (52هـ 672م)
وعمار بن ياسر (57ق.هـ - 37هـ - 567- 657م)
وعمرو بن العاص (50ق.هـ - 43هـ - 574- 664م)
وأبو هريرة (21ق.هـ - 59هـ - 602 - 679م)
وغيرهم من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ..(11)

***

هذه هي مصر.. التي قال عنها قائد فتحها عمرو بن العاص: "إن ولايتها جامعة، تعدل الخلافة"
والتي جاء في المأثورات:
"من أرادها بسوء كبه الله على وجهه"
"ومن أراد أهلها بسوء صرعه الله"
والتي قال عنها سفيان بن عيينة (107 - 198هـ - 725- 814م):
"إنها كنانة الله، يحمل فيها خير سهامه"(12)
والتي صدّق التاريخ على معاني هذه الأحاديث والمأثورات التي قيلت فيها.. فكانت ـ عبر تاريخ الإسلام ـ مقبرة الغزاة والإمبراطوريات الاستعمارية.. لأن أهلها ـ كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "في رباط إلى يوم القيامة"..

***

ولأن هذا هو تاريخ مصر ـ في التوحيد الديني.. وفي المدنية والحضارة ـ .. وتلك هي مكانتها في الإسلام.. وفي مواجهة التحديات الصليبية والصهيونية.. كان التآمر عليها..
ـ فالصليبيون اعتبروا السيطرة عليها الشرط الضروري لاحتلاهم للقدس الشريف!..
ـ وجمال الدين الأفغاني (1254 ـ 1314هـ ـ 1838 ـ 1897م) سماها : "بوابة الحرمين الشريفين"!..
ـ والمنظمة الصهيونية العالمية اعتبرت تفتيتها شرطًا لتفتيت كل وطن العروبة وعالم الإسلام، فقالت: "إذا تفتتت مصر تفتت الباقون"!..

ولتحقيق هذه المقاصد المعادية، أعلن الأعداء عليها الحرب.. لا بالغزو الخارجي فقط ـ فهي قد تمرست على مواجهته ـ وإنما ـ أيضًا ـ بغواية الأقليات فيها ـ وفي محيطها العربي والإسلامي ـ لتصبح بين "المطرقة" و"السندان".. مطرقة التحديات الخارجية.. وسندان زعزعة الاستقرار في جبهتها الوطنية الداخلية!..
ولكشف هذا المخطط ـ منذ مطلع عصرنا الحديث ـ نقدم هذه الدراسة التي تحملها صفحات هذا الكتاب..
سائلين المولى سبحانه وتعالى أن تكون "نداء" يوقظ الأمة، لترى حقائق هذا الكيد الماكر الذي يكيده الأعداء.. الداخليون والخارجيون ـ لمصر .. والعروبة .. والإسلام

القاهرة
رمضان سنة 1429هـ
سبتمبر سنة 2008م
الدكتور محمد عمارة

---

* هوامش :

1ـ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء) ص24 ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
2ـ المصدر السابق ص 25و26 ـ نقلا عن (أخبار الحكماء) للقفطي, وانظر ـ كذلك ـ (طبقات الأطباء) لابن جلجل ص 5و6 ـ تحقيق: فؤاد سيد ـ طبعة القاهرة سنة 1955م.
3ـ د. عبد المنعم أبو بكر (أخناتون) طبعة القاهرة سنة 1961م.
4ـ (تاريخ مصر ليوحنا النقيوس: رؤية قبطية للفتح الإسلامي) ص 201و220 ـ ترجمة ودراسة" د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة دار عين ـ القاهرة سنة 2000م.
5ـ سير. توماس ارنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص 72و73 ـ ترجمة" د. حسن إبراهيم، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي ـ طبعة القاهرة سنة 1970م.
6ـ المصدر السابق. ص 461و462.
7ـ آدم متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ 1 ص105. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ طبعة بيروت سنة 1967م.
8ـ يعقوب نخلة (تاريخ الأمة القبطية) ص 54 ـ 57 ـ تقديم: د. جودت جبرة ـ طبعة مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ ـ القاهرة سنة 2000م.
9ـ د. جاك تاجر (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م) ص 309 و315 ـ طبعة الهيئات القبطية بالمهجر ـ مدينة جرسي ـ أمريكا ـ سنة 1984م.
10ـ انظر (فضائل مصر) لعمر بن محمد بن يوسف الكندي ـ تحقيق: إبراهيم أحمد العدوي، على محمد عمر ـ طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة سنة 1971م.. وكذلك ما كتبه المقريزي ـ في الخطط ـ وفي السيوطي ـ في حسن المحاضرة ـ وابن تغري بردي ـ في النجوم الزاهرة ـ والنويري ـ في نهاية الأرب ـ والقلقشندي ـ في صبح الأعشى ـ وابن سعيد ـ في المغرب ـ وابن ظهيرة ـ في محاسن مصر والقاهرة.. تحت عنوان "فضائل مصر"..
11ـ فضائل مصر ص 37 ـ 40.
12ـ المصدر السابق ص 45و46و49.

2- أسباب التوتر الطائفي

من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الخلق، وفي الاجتماع الإنساني قيام العلاقات ـ علاقات الاقتران ـ بين "النعم" وبين "الابتلاءات والامتحانات والاختبارات"..
ففي نعمة الأولاد فتنة واختبار.. وكذلك الحال مع نعمة المال والغنى والثراء.. ومع نعمة الجاه والسلطان.. ومع نعمة العافية والقوة في الأبدان.. ومع نعمة إقبال الدنيا وزينتها على الناس ـ أفرادًا .. وطبقات.. وشعوبًا وأممًا.. وحضارات ـ .. { واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (الأنفال: 28).. { ونَبْلُوكُم بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء: 35)..
وذلك ليتم الابتلاء والاختبار والامتحان للناس، ويتميز الطيب من الخبيث، والصالح من الطالح، والمجاهدون على طريق الخيرات من الذين سقطوا ويسقطون في الابتلاءات والاختبارات..
ـ ولما كانت التعددية ـ التي جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ قانونًا وسنة لا تبديل لها ولا تحويل ـ في كل عوالم الخلق، وفي كل مكونات الاجتماع الإنساني ـ هي من أعظم نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لتحقيقها الحرية.. والسَّعة.. واستنفار الطاقات للتسابق في ميادين الإبداع.. والتنوع الذي يحقق جمال التمايز في الأفكار والأعمال وطرق التنافس في هذه الحياة.. كان الاقتران بين نعمة التعددية هذه وبين الابتلاء بها والاختبار فيها، ليتميز الراشدون الذين يوظفونها في التكامل والتوازن والتزامل والبناء من الذين يجعلونها سبيلاً للتناحر والتقاتل والتشرذم والتفتيت..
ـ ولأن الشريعة الإسلامية، والحضارة الإسلامية التي أثمرتها وبنتها هذه الشريعة، قد وضعت سنة التعدد في الممارسة والتطبيق(1).. فبنت أمة متعددة في الشرائع والديانات.. وفي الألسن واللغات والقوميات.. وفي المذاهب والفلسفات.. وفي الألوان والأجناس.. كما أقامت للإسلام دارًا متعددة الأقاليم والأوطان والولايات.. وصنعت لهذه الأمة ثقافة متعددة المناهج والاتجاهات وميادين الإبداع.. كان طبيعيًا اقتران نعمة التعدد هذه بألوان من ابتلاءات التوترات بين فرقاء هذه التعددية، امتحانًا لهؤلاء الفرقاء، حتى يتبين ويمتاز الساعون إلى توظيف التعدد في التكامل والتوازن من الذين سقطوا ويسقطون في مستنقعات التناحر والتنابذ والتقاتل والتصارع والتشرذم والتفتيت..
ـ إذن.. فليس غريبًا أن يشهد تاريخنا أو حاضرنا توترات بين مكونات الأمة ـ الدينية.. والقومية.. والوطنية ـ وإنما الأهم هو البحث عن أسباب هذه التوترات.. والأخذ بطرق العلاج التي تداوي ما ينشأ عنها من آثار..
ـ وفي حدود ما قرأت ـ حول التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي، القديم منه والحديث ـ فإن ما كتبه المفكر المسيحي اللبناني المرموق الدكتور جورج قرم ـ حول الأقليات المسيحية في التاريخ الإسلامي ـ كان ـ ولا يزال ـ أدق وأعمق ما كتب في هذا الميدان.. وذلك فضلاً عن أنه "شهادة شاهد من أهلها" ـ أهل هذه الأقليات الدينية التي عاشت في إطار أمة الإسلام..
لقد رصد الرجل ظاهرة التوتر الديني والطائفي ـ التي قال إنها كانت محدودة وعابرة ـ فأرجعها إلى عوامل ثلاثة.. وذلك عندما قال:
"إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:
العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصي، فأخطر اضطهادين تعرض لها الذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي (206 - 247هـ ـ 821 - 861م) الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (375 - 411هـ ـ 985 - 1021م) الذي غالى في التصرف معهم بشدة ـ (وكلا الحاكمين عم اضطهادهما قطاعات كبرى من المسلمين!! ـ ..
العامل الثاني: هو تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارس بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار.
أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة..
إن الحكام الأجانب ـ بمن فيهم الإنجليز ـ لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب ـ وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضًا، حيث ظهرت أبحاث "جب" و"بولياك" كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي قد أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة 1860م، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة 1840م وسنة 1860م.
ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ـ ولاسيما الأرمن ـ التي تعاونت مع الغازي..

بل إن كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سببًا في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم إلى حد الصفاقة، أحيانًا، لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة.."(2)
تلك شهادة شاهد من أهلها على حجم .. ومُدد.. وأسباب التوتر الديني والطائفي وتاريخنا الإسلامي.

---

* هوامش

1- انظر كتابنا (الإسلام والتعددية: التنوع والاختلاف في إطار الوحدة) طبعة القاهرة ـ مكتبة الشروق الدولية سنة 2007م.
2- جورج قرم : (تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة) ص 211 ـ 224 ـ طبعة بيروت سنة 1979م. والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم: (الملل والنحل والأعراق) ص 729و730 طبعة القاهرة سنة 1990م.

3- غواية بونابرت للأقليات

وإذا نحن نظرنا ـ تحديدًا ـ إلى عامل "الغواية الاستعمارية" لشرائح من أبناء الأقليات الدينية ـ في الشرق الإسلامي ـ بعصرنا الحديث.. فإننا نستطيع أن نشير إلى "محطات" في التوترات التي صنعتها هذه الغواية ـ بعد قرون من مثيلاتها التي صنعتها الغزوة الصليبية (489 ـ 690هـ ـ 1096 ـ 1291م) في تاريخنا الوسيط.(1)

ـ فبونابرت (1769 ـ 1821م) الذي قاد الحملة الفرنسية على مصر (1213هـ ـ 1798م) والشام.. والذي حلم بإعادة إمبراطورية الإسكندر الأكبر (356 ـ 323ق.م) الشرقية.. وتحقيق حلم الملك الصليبي القديس لويس التاسع (1214 ـ 1270م).. قد أعلن ـ وهو في طريقه من مرسيليا إلى الإسكندرية ـ أنه سيجند 20.000 من أبناء الأقليات المسيحية في مصر والشرق، ليتخذ منهم مواطئ أقدام لغزوته وإمبراطوريته الاستعمارية الفرنسية..

ولقد أثمرت غوايته الاستعمارية هذه ثمرات مرة، عندما سقط في مستنقعها قطاع من الأرثوذكس المصريين ـ الأقباط (2) ـ الذين كانوا "فيلقًا قبطيًا" ضم ألفين من شباب الأقباط ـ تزيا بزي الجيش الغازي، وحارب معه ضد الشعب المصري.. تحت قيادة "المعلم" يعقوب حنا (1745- 1801م) ـ الذي أصبح "جنرالاً" في الجيش الفرنسي الغازي ـ والذي يسميه الجبرتي (1167- 1237هـ ـ 1754 ـ 1822م) ـ وهو مؤرخ العصر ـ :"يعقوب اللعين"!..

ولقاء هذه الخيانة ـ التي تركت جراحات عميقة في الصف الإسلامي.. وفي الوحدة الوطنية ـ والتي بدأت مسيرة السقوط في غواية التبعية للاستعمار الغربي، والمراهنة على دعمه لتغيير هوية الأمة وانتمائها الحضاري.. أعطى بونابرت وخلفاؤه للأقلية النصرانية ـ من القبط والشوام ـ بمصر ـ الوزن الأكبر في إدارة شئون البلاد تحت الاحتلال الفرنسي.. كما عهد الجنرال "كليبر" (1753- 1800م) ـ الذي خلف بونابرت في قيادة الحملة وحكم مصر ـ إلى المعلم يعقوب حنا:

".. إن يفعل بالمسلمين ما يشاء!.. فتطاولت النصارى، من القبط ونصارى الشوام، على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا، كما صرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين"!.

وبعد مشاركة "الفيلق القبطي" للفرنسيين الغزاة في إبادة 1/7 الشعب المصري ـ (300.000 من شعب كان تعداده أقل من 3.000.000) ـ احتفلوا بانتصارات بونابرت على أهل "غزة" (1213هـ 1799م).. وكما يقول الجبرتي:

".. فأظهر النصارى الفرح والسرور، في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة"!.(3)

وفي حماية المستعمر الفرنسي، وفي ظلال سيوفه، أظهروا الكيد للأغلبية المسلمة.. وبعبارة الجبرتي:

".. فترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود، فركبوا الخيول، وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس، ومشوا بالخيل، وتلفظوا بفاحش القول، واستذلوا المسلمين مع عدم اعتبارهم للدين، إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحساب، ولا يسطر في الكتاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"!.(4)

ـ ولم تنته هذه الغواية ـ وهذا السقوط ـ بهزيمة الحملة الفرنسية على مصر، وجلاء جيشها (1216هـ ـ 1801م).. ورحيل المعلم يعقوب حنا وزمرته مع جيش الاحتلال.. وإنما خلف يعقوب ـ عقب هلاكه ـ من سموا أنفسهم "الوفد المصري" ـ أي اللاعربي واللاإسلامي ـ الذي ذهب إلى فرنسا ـ بقيادة "نمر أفندي" ـ عارضًا العمالة على الإمبراطورية الفرنسية، حتى بعد هزيمتها!.. ومعلنًا عن استعداده لتطبيق القانون الفرنسي بمصر، بدلا من القانون الوطني والفقه الإسلامي!.. بل وعارضا تسخير الكنيسة الأرثوذكسية المصرية لتحقيق حلم فرنسا الكاثوليكية اختراق إفريقيا دينيًا!..

وفي هذا الصدد، عرض هذا "الوفد المصري":

"الولاء لبونابرت".. وقالوا له :"إن الوفد المصري، الذي فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا.. وإن الجمهورية الفرنسية اليوم ـ إذا أرادت ـ يمكنها عن طريق الأمة المصرية، التي ستكون موالية لها، مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا، وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية"!.(5)

ـ وفي الوقت الذي كان هذا "الوفد المصري" يراهن على فرنسا المهزومة.. كان المعلم يعقوب ـ قبيل هلاكه ـ قد كتب "وصيته" إلى انجلترا الاستعمارية، لتحل محل فرنسا في ضم مصر إلى السيطرة الغربية، لتغيير هوية مصر، وانتمائها، وعلاقاتها الإقليمية والدولية.. فطلب ـ في هذه "الوصية" ـ التي بعث بها إلى وزير الحرب الإنجليزي ـ أن ترث انجلترا مصر من الدولة العثمانية.. وقال:

"توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار، ولذا فيهم الإنجليز، قبل أن تقع الواقعة، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه، فيحققوا مصالحهم السياسية.
وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر - كما استحال ذلك من قبل على فرنسا - فيكفي أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانية، صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها، إن بريطانيا لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية، ويضمن لها بالتالي أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها.. إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا.. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر، وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعي الأمة، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبري تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء!..
وللدفاع عن هذا الاستقلال.. فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوة أجنبية تعمل لحسابهم، يتراوح عددها بين 12.000 و15.000 جندي، يكفون تمامًا لصد الترك عن الصحراء، والسجق المماليك داخل مصر.."!(6)
فالوصية اليعقوبية، هي باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية، وماضيها وحاضرها الإسلامي، ومحيطها القومي والحضاري - أي الانسلاخ عن العروبة والإسلام -.. وإخضاعها لنفوذ انجلترا، لتكون موالية لبريطانيا، التي تستأثر بتجارتها الخارجية.. هذا "الاستقلال" الذي تفرضه القوات الأجنبية على المصريين "المسالمين الجهلاء"!.. كما قال المعلم يعقوب اللعين!..
هذا عن جبهة الأقلية الأرثوذكسية بمصر، في أولى محطات السقوط في غواية الاستعمار الغربي - في عصرنا الحديث - ..

***

وعلى جبهة الأقليات اليهودية.. رمى بونابرت حبال هذه الغواية الاستعمارية أيضًا، وذلك عندما أذاع - وهو على أسوار عكا (1213 - 1799م) - نداءه إلى يهود العالم، طالبًا منهم التأييد والدعم لطموحاته الاستعمارية في الشرق الإسلامي، لقاء إعادة زرعهم في فلسطين.. فقال في هذا النداء:
"أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد.. انهضوا بقوة، أيها المشردون في التيه.. لابد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت العبودية، وذلك الخزي الذي شل إرادتكم لألفي سنة..
إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به.. قد اختار القدس مقرًا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة، التي استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها..
يا ورثة فلسطين الشرعيين، إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كلا الدخلاء"!(7)
تلك كانت "المحطة الأولى" من محطات الغواية الاستعمارية للأقليات الدينية الشرقية في عصرنا الحديث.

---

* هوامش:

1- انظر كتابنا (الدراما التاريخية وتحديات الواقع المعاصر) طبعة القاهرة - مكتبة الشروق الدولية سنة 2005م.
2- القبطي هو المصري.. فالمسلمون المصريون هم: أقباط مسلمون. والمسيحيون - النصارى - المصريون هم: أقباط مسيحيون.. لكننا - مجاراة للخطأ الشائع - سنستخدم مصطلح الأقباط للتعبير عن النصارى.
3- الجبرتي : (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) جـ 5 ص 134 و136 - طبعة القاهرة سنة 1965م.
4- الجبرتي: (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس) ص117 - طبعة القاهرة سنة 1969م.
5- المصدر السابق ص112.
6- د. أحمد حسين الصاوي: (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص129و132 - طبعة القاهرة سنة 1986م.
7- المصدر السابق. ص123 - 125 - ملحق رقم 6.
8- محمد حسنين هيكل: (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) - الكتاب الأول - ص 31 و32 - طبعة القاهرة سنة 1996م.

4- المؤتمر القبطي في ظلال الاستعمار الإنجليزي

وبعد احتلال الإنجليز لمصر (1299 - 1882م) كانت "المحطة الثانية" للغواية الاستعمارية للأقلية الأرثوذكسية - القبطية - التي حاولت بعث مشروع المعلم يعقوب حنا - مشروع : سلخ مصر عن العروبة والإسلام.. واستخلاصها للأقباط المسيحيين!..
لقد اجتمعوا على تأييد الاحتلال الإنجليزي .. والاستعانة به.. والاستنجاد بأوروبا المسيحية لإحداث هذا الانقلاب على الإسلام والمسلمين..
وبعد مقتل بطرس غالي باشا (1846 - 1910م) - الذي كان يسعى إلى تحقيق ذلك الهدف بالتدريج الناعم ! - عقدوا المؤتمر القبطي - في أسيوط - 4 مارس سنة 1911م - لاستعجال تحقيق هذا الانقلاب..
ولإدراك هذه الحقيقة.. والمقاصد الحقيقية لهذا المؤتمر، علينا أن نقرأ ما كتبه أعظم علماء الأمة وعيًا بحقيقة حركات "الإحياء القومي": اليهودية.. والمسيحية في الشرق الإسلامي.. وهو الإمام الشيخ محمد رشيد رضا (1282 - 1354هـ - 1865 - 1935م)، الذي نبه إلى مخاطر حركة الإحياء اليهودي الصهيوني سنة 1910م - وإلى تحالفها مع الاستعمار الغربي - قبل غيره - وربما دون غيره - من العلماء والمفكرين والساسة في تلك الفترة..(1)
ونبه إلى مخاطر حركة الإحياء القبطية سنة 1911م.. فكتب - بمناسبة انعقاد المؤتمر القبطي - الذي استهان بخطره كثير من الكتاب - كتب يقول :
"إنهم يتحدثون عن ما يسمونه المسألة القبطية في مصر.. بل والثورة القبطية!.. ويريدون أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية في أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة.. وإنما عن الوطنية والمصرية..
إن القبط يعملون كل شيء للقبط، باسم القبط، ويعبرون عن أنفسهم بالأمة القبطية، ويسمون البلاد المصرية بلادهم وبلاد آبائهم وأجدادهم.. ويطلبون ما يطلبون من المناصب والأعمال في الحكومة للقبط باسم القبط على أنها حق للقبط..
والمشهور أن نسبة القبط إلى المسلمين في هذا القطر هي نسبه من خمسة إلى ستة في المائة.. وهم يمتلكون ثلاثين في المائة من ثروة البلاد.. ومعظم أعمال الحكومة المصرية ومصالحها في أيدي القبط.. وهذا هو الذي أطمع القبط في جعل حكومة مصر قبطية محضة في يوم من الأيام..
ولقد أجمع القبط على تأييد الاحتلال.. وألفوا مؤتمرًا قبطيًا عامًا في أسيوط - التي سماها بعضهم (عاصمة القبط)..
وتقول القبط: إن لنا من الحقوق في هذه الحكومة ما ليس لغيرنا، لأننا سكان البلاد الأصليين.
ويجيبهم المسلمون على هذا بأربعة أجوبه:
1- إننا لا نسلم أنكم سكان البلاد الأصليين.. وقد صرح المسلمون بهذا، وأيدوه بأقوال مؤرخي الإفرنج.
2- إذا سلمنا أنكم من سلالة قدماء المصريين، فإن لنا أن نتبع فيكم سنة أرقى الحكومات المسيحية علمًا وعدلاً وحرية في سكان بلادها الأصليين، وهي حكومة الولايات المتحدة، فهل ترضون أن تكون حقوقكم في هذه البلاد كحقوق هنود أمريكة في حكومتها الآن، وهم أهلها الأصلاء من غير خلاف؟.
3- إنكم تقولون أن أكثر مسلمي هذه البلاد منكم، وأقلهم من العرب والترك والشركس، فلا فريه لكم في هذا النسب الشريف على جمهور المصريين المسلمين، ولهم المزية عليكم بكثرتهم، وكون الحاكم العام من أهل دينهم، وذلك سبب للترجيح متبع في الحكومات المسيحية الراقية.
4- إن طول زمن الإقامة في بلد لا يقتضي التفضيل في الحقوق، وقصره لا يقتضي الحرمان من شيء منها متى كان القوم الذين طالت مدتهم أو قصرت من أهل البلاد المقيمين فيها الخاضعين لشريعتها وقوانينها..
لقد كان بنو إسرائيل دخلاء في مصر وفضلهم الله تعالى في كتبه على آل فرعون، ثم فضل الله العرب واصطفاهم بإرسال رسول منهم مثلما اصطفى إخوتهم بني إسرائيل من قبلهم بإرسال رسول منهم - كما أشار إلى ذلك في سفر تثنية الاشتراع - فيكف تُطالب حكومة مصر، التي تدين الله تعالى، أن تميز الشعب المفضول في كتب الله على الشعب الفاضل، بل الشعبين الفاضلين؟!..
إن النسب الفرعوني، الذي تُدلّ به القبط، غير مسلم لهم، وإذا سُلّم جدلا فهو لا يقتضي تفضيلهم على اليهود، بل اليهود أشرف منهم نسبًا لأنهم ينتسبون إلى أنبياء الله تعالى، والقبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء الله تعالى.
إن القبط شرذمة قليلة في أمة كبيرة، تأكل من ثمراتها زهاء ثلاثين في المائة، وهي زهاء خمسة أو ستة في المائة..
وتستنجد جرائد أوروبا ووقسوتها ليلزموا الدولة الإنكليزية أن تنصر الفئة القليلة، لأنها مسيحية، على الفئة الكثيرة الإسلامية.. وقد وعدهم بعض القسيسين والسياسيين لينفذون لهم ذلك..
ولقد طفقوا يطعنون في جرائدهم طعنًا صريحًا في سلف المسلمين وخلفهم، ودينهم وآدابهم ولغتهم..

وهم يريدون أن يثبوا على الوظائف الإدارية العالية كما وثبوا في القضاء. يريدون أن تترك الحكومة العمل في يوم الأحد. يريدون أن تدرس الديانة المسيحية في الكتاتيب والمدارس كلها..
إن المسيحية قد فصلت الحكومة من الدين، كما يقولون، وأمرت أن يُعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله، والإسلام ذو شريعة وسياسة، فما بال الذين يأمرهم دينهم بالخضوع لكل حاكم وإن كان وثنيًا كقيصر الروم في زمن المسيح، عليه السلام، قد أصيبوا بهذه الشره في السياسة؟!..
إنه لا يضر من يشارك المسلمين في الخضوع لشريعتهم أن كانوا يدينون الله بهذا الخضوع وهو لا يدين الله به، فإن حقوقه على المسلمين المكفولة بها تكون حينئذ مضمونة بقوة الحكومة في الظاهر وقوة الاعتقاد في النفس. وحقوقهم عليه لا تكون مضمونة إلا في الظاهر فقط، فالمسلم المتدين لا يأكل حق غيره وإن أمن عقاب الحكومة، وغير المسلم قد يأكل حق المسلم المحكوم به إذا أمن العقاب، لأن وجدانه لا يعارضه في ذلك إذا اعتقد أن الحكم لا يجب الخضوع له.
ولقد كان من مقاصد بطرس غالي باشا التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية، وجعل الحكم في الأمور الشخصية من خصائص المحاكم الأهلية، لأن طلبة الحقوق يتعلمون الفقه الإسلامي، فهو يريد أن يتعود المسلمون بالتدريج حكم لابسي الطرابيش في القضايا الشرعية، حتى لا يبقى للمسلمين في الحكومة المصرية شيء من المشخصات الملية..
ولقد أراد القبط أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية في أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة.. ليكون الانتقال من إسلامية إلى "مصرية" مدرجة إلى الانتقال من "مصرية" إلى "قبطية"..
أليس من الذل والهوان أن نرضى بالانتقال من الإسلامية إلى "مصرية" ليكون ذلك مدرجة إلى الانتقال من "مصرية" إلى "قبطية"؟!..
مع أن في الجزائر البريطانية كثير من الكاثوليك ولا تسمح الحكومة لهم بأن يلقنوا مذهبهم في مدارسها، بل المذهب الذي يدرس فيها هو مذهب البرتستانت الذي عليه ملك الإنجليز وأكثر الشعب الإنكليزي، فهل تسمح هذه الحكومة الحرة بأن يدرس في مدارسها دين اليهود من رعاياها وهي لا تسمح بتدريس مذهب الكاثوليك من مدارس دينها؟؟
ولا نشرح ما يشترط على ملك الإنكليز أن يقوله عند تتويجه من الطعن في الكاثوليكية والبراءة منها، ولا منع الحكومة الإنكليزية الكاثوليك من إظهار بعض شعائر مذهبهم في عيد الفصح أو غيره، وقس على ذلك سائر دول أوربة..
لقد اشتهرت مصر بأنها بلاد العجائب، وحق لها أن تشتهر بذلك، فمسلموها يقفون أرضهم حتى على أديار القبط، وينفقون من ريع أوقافهم الخاصة على تعليم القبط، وحكومتهم تسمح للقبط بأن يعلموا دينهم في مدارسها، وهو ما لا نظير له في الحكومات الأوروبية التي تقتدي بها.
والقبط تشكون من ظلمهم، وتستغيث بأوربة منهم، وتُدلّ عليهم بنسبها، وتدعي أنها صاحبة البلاد، وأنها أجدر بحكمها.
وفي هذه البلاد معاهد تديرها الحكومة، وينفق عليها من أوقاف المسلمين المحبوسة على تعليم أولادهم خاصة، والحكومة تقبل في هذه المعاهد أولاد القبط فتعلمهم على نفقة المسلمين مخالفة في ذلك شرط الواقف لأجلهم، فهل تسمح القبط بإنفاق قرش واحد من أوقافها على تعليم مسلم؟!.
إن أمر المسلمين في تسامحهم مع القبط وترجيحهم لهم على أنفسهم لغريب لم يعهد له نظير في الأرض.. وقف الخديوي الأسبق إسماعيل باشا واحدًا وعشرين ألف فدان على تعليم أولاد المسلمين، وهي الأرض التي تمسى "تفتيش الوادي" ووقف جده من قبله ثلاثة آلاف فدان على تعليم أولاد القبط، فكان عطاؤه للقبط أكثر، لأنه لا يبلغون ثمن المسلمين، فاستأثرت القبط بما وقف عليها وشاركت المسلمين فيما وقف عليهم، ثم ترفع جرائدهم عقيرتها مستغيثة بأوربة المسيحية من ظلم المسلمين لهم في التعليم!.
ومن هذا القبيل مساعدة أوقاف المسلمين للجامعة المصرية بخمسة آلاف جنيه في كل سنة، وهي مفتحة الأبواب للقبط وغيرهم، وطلبتها من غير المسلمين لا يقل عددهم عن المسلمين.
لقد علمنا بالقياس المطرد المنعكس:
أن القبط ـ وهم شرذمة قليلة: من خمسة إلى ستة في المائة من السكان ـ والذين يملكون 30% من ثروة البلاد ـ لا يأخذون شيئًا إلا ويطلبون ما بعده، فلا يجاب طلب إلا ويعقبه طلب، ولا ينتهي أرب إلا إلى أرب، ولا يقنع هذه الفئة القليلة العدد، الكثيرة النشاط، الكبيرة الطمع، إلا أن يكون الحكم والنفوذ في هذه البلاد خالصًا لهم من دون المسلمين.."(2)

***

تلك كانت "المحطة الثانية" من محطات الغواية الاستعمارية لقطاعات مؤثرة ومتنفذة من الأقلية القطبية الأرثوذكسية.. التي حملت وسعت إلى سلخ مصر من العروبة والإسلام.. والعودة بها إلى الماضي السحيق.. ليكون "الحكم والنفوذ في مصر خالصًا للقبط من دون المسلمين" ـ كما قال الشيخ رشيد رضا، الذي كان أعمق وأوعى من صور هذه المحطة من محطات الغواية الاستعمارية لهذه الشرذمة القليلة، التي لم تقنع وهي 5% من السكان بامتلاك 30% من ثروة البلاد!..

***

أما على جبهة الأقليات اليهودية: فلقد تفاعلت هذه الغواية الاستعمارية ـ التي أطلقها بونابرت.. والتي رعتها انجلترا ـ حتى أفضت إلى قيام الحركة الصهيونية الحديثة.. والوكالة اليهودية.. ووعد بلفور سنة 1917م.. وقيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين سنة 1948م.(3)

---

* هوامش:

1ـ انظر ذلك بكتابنا: (من أعلام الإحياء الإسلامي) ص 50 ـ 60 طبعة القاهرة ـ مكتبة الشروق الدولية سنة 2006م.
2ـ رشيد رضا (المنار) جـ 2 مجلد 14 ص 108 ـ 114، 159 و160 ـ في 30 صفر سنة 1329هـ ـ أول مارس سنة 1911م.
وجـ 3 مجلد 14 ص202 ـ 226 ـ في 29 ربيع الأول سنة 1329هـ ـ 30 مارس سنة 1911م.
3ـ انظر في ذلك كتابنا: (في فقه الصراع على القدس وفلسطين) طبعة القاهرة دار الشروق سنة 2007م.

5- مصر بين الإسلام.. والتغريب

وعلى الجبهة المصرية.. جاءت ثورة 1919م فداوت الكثير من جراحات تلك النزعات الطائفية العنصرية الانعزالية.. ـ فاجتمعت الأمة وأجمعت ـ بدياناتها المختلفة: الإسلام والمسيحية واليهودية ـ وتياراتها الفكرية المتنوعة ـ إسلاميين وعلمانيين ـ على الهوية "العربية الإسلامية" لمصر.. وتم النص على ذلك في دستور سنة 1923م :"الإسلام هو الدين الرسمي للدولة.. واللغة العربية هي لغتها الوطنية والقومية"..

ـ وأعلن ابن مصر البار مكرم عبيد (1889 - 1961م) ـ وهو أحد أبطال ثورة سنة 1919م وقادتها ـ عن عروبة مصر والمصريين ـ حتى قبل قيام جامعة الدول العربية سنة 1945م ـ فكتب سنة 1939م يقول:

"المصريون عرب.. وتاريخ العرب سلسلة متصلة الحلقات، لا، بل هو شبكة محكمة العقد.. ورابطة اللغة، والثقافة العربية، والتسامح الديني، هي الوشائج التي لم تقضمها الحدود الجغرافية، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا، على الرغم من وسائلها التي تتذرع بها إلى قطع العلاقات بين الأقطار العربية واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التي لا ريب في أنها أعظم الأركان التي يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة في الشرق العربي.

وأبناء العروبة في حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبني حضارة زاهرة.

نحن عرب، ويجب أن نذكر في هذا العصر دائمًا أننا عرب، وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان. نحن عرب من هذه الناحية، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية في مصر، وامتداد أصلنا السامي القديم إلى الأصل السامي الذي هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية..

فالوحدة العربية حقيقية قائمة موجودة لكنها في حاجة إلى تنظيم، فتصير كتلة واحدة، وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة.."(1)

هكذا تحدث مكرم عبيد باشا ـ حديث العالم ـ عن عروبة مصر والمصريين حضارة.. بل ومن ناحية الجنس والعرق.. فالأصل القديم للمصريين سامي.. وهم قد تواصلوا مع الساميين العرب الذين هاجروا إلى مصر في التاريخ السابق على ظهور الإسلام.(2)

كما تحدث ـ سياسيًا ـ عن الوحدة العربية، التي يجب أن تجعل كل أوطان العالم العربي "جامعة وطنية واحدة"..

وهذه الحضارة، التي أسهمت مصر في بنائها وبلورتها، والتي تنتمي إليها هي "عربية.. إسلامية".. وعن إسلامية مصر الوطن والحضارة أعلن مكرم عبيد فقال:

"نحن مسلمون وطنًا، ونصارى دينًا.. اللهم أجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارًا.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين"(3)

ـ نعم.. حدث هذا بفعل تأثيرات ثورة سنة 1919م.. وتطلع الكثيرون إلى مستقبل تتجاوز فيه الأقلية الأرثوذكسية شباك الغواية الاستعمارية..

لكن قطاعات مؤثرة من نخب هذه الأقلية قد ظلت متطلعة إلى السير على ذلك الطريق.. طريق الغواية الاستعمارية.. والاستعانة بالغرب ـ وخاصة الثقافي والحضاري (أي التغريب) ـ لإلحاق مصر بالغرب، وتحويل رسالتها و"بوصلتها" الحضارية عن قبلة "العروبة والإسلام".. فلقد ظل "مشروع المعلم يعقوب" يخايل هذه القطاعات من النخبة النصرانية المصرية ـ العلمانية منها والكهنوتية ـ حتى لقد أطلقوا على هذا "المشروع" وصف: "المشروع الأول لاستقلال مصر"..دون الكشف عن طبيعة هذا "الاستقلال" ـ الذي لم يكن استقلالا عن الاستعمار الغربي ـ العدو التاريخي لمصر والشرق ـ وإنما كان استقلال عن الهوية العربية والإسلامية لمصر .. أي عن "الذاتية" و"الرسالة الحضارية" لمصر ـ .

ويشهد على هذه الحقيقة، ما كتبه الدكتور لويس عوض (1915 ـ 1989م) عن المعلم يعقوب ـ بعد قرابة القرنين من هلاكه ـ .. فلقد وضعه في مصاف عظماء الأمة وأبطالها، من مثل: محمد علي باشا الكبير (1184 - 1265هـ ـ 1770 ـ 1849م).. وعلي بك الكبير (1140 - 1187هـ ـ 1728 - 1773م).. وجمال عبد الناصر (1336 ـ 1390 هـ ـ 1918 ـ 1970م)!!..

كما وصف لويس عوض اللغة العربية بأنها "لغة دخيلة.. وميتة.. وأنها الأغلال التي يجب تحطيمها"!..(4)

وذلك فضلاً عن هجومه على عروبة مصر.. وعلى العروبة عامة.. ووصفه لها بأنها "عنصرية.. وفاشية..وأسطورة من الأساطير"(5)

ـ ومن قبل لويس عوض، دعا سلامة موسى (1888 ـ 1958م) إلى الذوبان الكامل في الغرب ـ حتى عندما كان هذا الغرب يحتل مصر! ـ .. ودعا إلى الانسلاخ الكامل عن العروبة والإسلام، فقال:

".. أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب.. وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة!.. ونحن نريد العامية، لغة الهكسوس، لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن"!(6)
.. وهكذا ظل "مشروع المعلم يعقوب": سلخ مصر عن العروبة والإسلام، وتغريبها.. يخايل قطاعات من النخبة الأرثوذكسية..

***

لقد بدأ التغريب ـ في الشرق ـ مسيحيًا.. جاءت به مدارس الإرساليات التنصيرية الفرنسية التي أقامتها فرنسا على أرض لبنان، والتي استقطعت فيها العديد من أبناء الطائفة المارونية ـ الكاثوليكية.. ذات الهوى الفرنسي! ـ .. وذلك لصناعة نخبة تقدم النموذج الحضاري الغربي إلى الشرق، ليكون بديلاً عن النموذج الحضاري الإسلامي.. وذلك عن طريق تخريج "جيش ـ ثقافي ـ متفاني في خدمة فرنسا في كل وقت"!.. وحتى "تنحني البربرية العربية ـ (!!!) ـ لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا"! ـ بتعبير القناصل الفرنسيين ببيروت في القرن التاسع عشر ـ (7)
وإذا كان التغريب قد تعدى نطاق الطوائف المسيحية الشرقية، فشمل قطاعات من النخب المسلمة، فلقد ظل ـ في الإطار الإسلامي ـ خيار قطاع محدود من النخبة، بينما تطور ـ على الجانب المسيحي ـ ليصبح خيار المؤسسات الفاعلة، التي رأته البديل عن النموذج الإسلامي، وخاصة بعد تصاعد المد الإسلامي عقب إفلاس النموذج العلماني ونماذج التحديث على النمط الغربي..
فلما حدث تغرب الكنائس الوطنية الشرقية ـ بتأثير الحداثة الغربية.. والمذاهب المسيحية الغربية.. ومجلس الكنائس العالمي ـ عمت بلوى تغرّب مراكز التوجيه الديني والعلماني لدى أغلبية المسيحيين الشرقيين!.. على حين ظل التغريب في النخبة المسلمة نتوءًا شاذًا لا تأثير له في الشارع الإسلامي.. فلما تعاظم "اليقظة الإسلامية المعاصرة" دُفعت هذه النخبة المسلمة المتغربة إلى "نفق الإفلاس"!..

---

* هوامش:

1ـ مكرم عبيد ـ مجلة (الهلال) عدد إبريل سنة 1939م.
2ـ للمقريزي كتاب نفيس في هذا الموضوع، عنوانه: (الإعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب). تحقيق: د. عبد المجيد عابدين ـ طبعة القاهرة.
3ـ صحيفة (الوفد) عدد 1993/1/21م.
4ـ د. لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث) جـ 1 ص 183و184و186و194و197و209ـ طبعة دار الهلال ـ القاهرة سنة 1969م.
5- الأهرام في 8و20 إبريل، 11 مايو 1978م، و(السياسية الدولية) عدد أكتور سنة 1978م.
6- سلامة موسى (اليوم والغد) ص 5 ـ 7 ، 200 و201 طبعة القاهرة سنة 1928م.
7 ـ من محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية لسنوات 1840 ـ 1842، 1848 ، 1897 ، 1898م. انظر: محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) طبعة بيروت سنة 1990م.

6- مخطط تفتيت عالم الإسلام

ولقد كانت إقامة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين سنة 1948م بداية لتطور "نوعي.. وكمي" في مشروع الغواية الاستعمارية للأقليات ـ الدينية.. والقومية ـ في الشرق الإسلامي.. لمزيد من التفتيت للعالم الإسلامي، على النحو الذي يحوله إلى "فسيفساء ورقية" مشغولة "بالألغام" الداخلية المتفجرة فيما بينها.. وذلك حتى يتحقق الأمن للكيان الصهيوني ـ في المحيط العربي والإسلامي ـ فيقوم بالشراكة والوكالة في مشروع الهيمنة الاستعمارية الغربية على عالم الإسلام..

وفي التخطيط ـ المعلن ـ لهذا التطور "النوعي.. والكمي" لهذه الغواية الاستعمارية.. لأبناء الأقليات ـ الدينية.. والقومية ـ كي تتحرك ـ متحالفة مع الاستعمار والصهيونية ـ ضد العروبة والإسلام.. وضد وحدة الأمة وتكامل دار الإسلام ـ في هذا التخطيط كتب المستشرق الصهيوني "برنارد لويس" Bernard Lewis في مجلة البنتاجون ـ مجلة وزارة الدفاع الأمريكية ـ Executive Intelligence research project- داعيا إلى مزيد من التفتيت للعالم الإسلامي ـ من باكستان إلى المغرب، على أسس دينية وقومية ومذهبية، وذلك لإنشاء اثنين وثلاثين كيانًا سياسيًا جديدًا في الشرق الإسلامي.. دعا إلى تقسيم العراق إلى دول ثلاث: كردية.. وسنية.. وشيعية.. وتقسيم السودان إلى دولتين: زنجية.. وعربية.. وتقسيم لبنان إلى خمس دويلات: مسيحية.. وشيعية.. وسنية.. ودرزية.. وعلوية.. وتقسيم مصر إلى دولتين: إسلامية.. وقبطية.. وكذلك بقية أنحاء العالم الإسلامي.. وذلك ليصبح العالم الإسلامي ـ وفق تعبيره ـ "برجًا ورقيًا" ومجتمعات فسيفسائية ـ مجتمعات الموزايك Mosaic Society .. ثم قال:

"ويرى الإسرائيليون: أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها.. ونظرًا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ـ إسرائيل ـ ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل"!(1)

ـ وعندما بدأت إسرائيل ـ أوائل خمسينيات القرن العشرين ـ تحقيق هذا المخطط ـ على جبهة المارونية السياسية بلبنان ـ تحدث ديفيد بن جوريون (1886 ـ 1973م) ـ أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني ـ تحدث سنة 1954م ـ عن:

"ضرورة تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي، وتحريك هذه الأقليات، لتدمير المجتمعات المستقرة، وإذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي"!!(2)

ـ وفي عقد الثمانينيات، من القرن العشرين، نشرت المنظمة الصهيونية العالمية ـ في مجلتها الفصلية "كيفونيم" Kivunim ـ الاتجاهات ـ عدد 4 فبراير سنة 1982م ـ أي إبان الحرب الأهلية اللبنانية (1975 ـ 1990م) ـ فقالت عن هذا المخطط التفتيتي المعلن:

"إن تفتيت لبنان بصورة "مطلقة" إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربي بأسره، بما في ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية.. إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منها ـ (في المغرب) ـ لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفي أثر مصر في انهيارها وتفتتها، فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون ـ (!!) ـ إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية ـ مصرية، لا سلطة مركزية "كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخي"

وخلصت هذه الاستراتيجية الصهيونية إلى الهدف.. فقالت:

"إن هذا هو ضمان الأمن والسلام في المنطقة بأسرها في المدى الطويل.. ففي العصر النووي لا يمكن بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، فهذا دافع استراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود"!(3)

ـ وفي تسعينيات القرن العشرين، دعا "مركز بارايلان للأبحاث الاستراتيجية" ـ التابع لجامعة بارايلان الإسرائيلية ـ إلى ندوة، عقدت في 20 مايو سنة 1992م، وشاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية، بواسطة "مركز الأبحاث السياسية" التابع لها، وأسهم فيها باحثون من "مركز ديان" ـ التابع لجامعة تل أبيب ـ وذلك لبحث "الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في منطقة الشرق الأوسط".. ولقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثًا.. وخلصت أبحاثها وتوصياتها إلى:

"أن هذه الأقليات.. هي شريكة إسرائيل في المصير، ولابد من أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية، أو تبدي استعداد لمحاربتها أو مقاومتها، فهي حليف وقوة لإسرائيل.."(4)

***

هكذا تم التخطيط لهذا التطور "النوعي.. والكمي" في الغواية "الاستعمارية ـ الصهيونية" للأقليات ـ الدينية.. والقومية.. والمذهبية ـ في وطن العروبة وعالم الإسلام.. وتم الإعلان عن هذا التخطيط ـ في الوثائق التي قدمنا بعض فقراتها ـ .. وبدأت التطبيقات لهذا التخطيط متزامنة مع إنشاء الكيان الصهيوني على أرض فلسطين..

---

* هوامش:

1ـ محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص131و133و143 طبعة بيروت سنة 1990م.
2ـ د. سعد الدين إبراهيم (الملل والنحل والأعراق) ص740 ـ 748 ـ طبعة القاهرة سنة 1994م. ـ (وهو ينقل عن مذكرات موشى شاريت ـ رئيس وزراء إسرائيل في ذلك التاريخ)ـ.
3ـ (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص140 ـ 144.
4ـ (ندوة الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في العالم العربي) ص6 ـ10 ، 27. ترجمة الدار العربية للدراسات والنشر ـ طبعة القاهرة سنة 1992م.

7- والأقليات القومية الإسلامية.. أيضًا!

وتبعًا لهذا التطور "النوعي.. والكمي" في مخطط الغواية والتفتيت.. شمل التخطيط والتنفيذ أقليات قومية إسلامية، مع الأقليات الدينية غير المسلمة..

ـ فالملا مصطفى البرزاني (1321 ـ 1399هـ ـ 1903 ـ 1979م) ـ الزعيم الإقطاعي الكردي ـ زار إسرائيل سرًا في ستينيات القرن العشرين.. فبدأ ـ بهذه الزيارة ـ التحالف بين النزعة القومية العلمانية الكردية وبين الاستعمار والصهيونية منذ ذلك التاريخ.. الأمر الذي أفضى إلى قيام الكيان الكردستاني في شمال العراق، تحت الحماية الأمريكية، وبدعم صهيوني، منذ الحصار الأمريكي للعراق سنة 1991م.. والذي تصاعد بعد غزو العراق سنة 2003م.. وهو الكيان الذي مثل انقلابًا، على وحدة العراق فحسب، وإنما على الهوية العربية والإسلامية للأكراد ـ الذين خدموا الإسلام والعربية عبر التاريخ الإسلامي ـ حتى أن مدارس وجامعات هذا الكيان الكردي تخرّج عشرات الآلاف من الأكراد الذين لم يدرس واحد منهم حرفًا من لغة القرآن الكريم!..

ـ وفي المغرب العربي، حيث الأمازيغ ـ الذين قادوا تاريخيًا نشر الإسلام والعربية بشمالي إفريقيا ـ قامت ـ وتقوم ـ فرنسا الاستعمارية برعاية "أكاديمية" أمازيغية" لإحياء اللغة الأمازيغية.. التي هي عبارة عن عدة لهجات ـ و"صناعة" أبجدية لهذه "اللغة" لتكون بديلاً للغة القرآن الكريم، وسُلَّما لفرنسة لسان الأمازيغ!.. بل ويتحدث البعض حتى عن انفصال الأمازيغ سياسيًا عن العرب في تلك الأقطار!.

ـ وعلى الجبهة المارونية ـ في لبنان ـ أفلحت الغواية "الصهيونية ـ الاستعمارية" في تحريك "المارونية السياسية" التي جرّت لبنان إلى حرب أهلية دامت خمسة عشر عامًا (1975 ـ 1990).. وتركت جراحات لم تندمل حتى هذه اللحظات.

وهكذا شمل مخطط التفتيت لوطن العروبة وعالم الإسلام تحريك الأقليات القومية الإسلامية في اتجاه الانفصال.. والانسلاخ عن العروبة، والانتماء الحضاري "العربي ـ الإسلامي".. وذلك بدلا من اختيار الحل الإسلامي، الذي يسلك الوطنيات.. والقوميات في إطار جامعة الإسلام، وتكامل دار الإسلام.

8- تحول الكنيسة إلى دولة طائفية عنصرية

أما على الجبهة المصرية.. التي قالت عنها "استراتيجية إسرائيل في الثمانينات" ـ من القرن العشرين ـ :
"إنه إذا تفتتت مصر تفتت الباقون"!.. فلقد بدأ يتخلق في صفوف النصارى الأرثوذكس ـ عقب الحرب العالمية الثانية ـ ومع نجاح "الإحياء اليهودي" الذي اتخذ شكل الكيان الصهيوني الذي أقيم سنة 1948م على أرض فلسطين ـ.. بدأ يتخلق تيار "طائفي ـ عنصري ـ انعزالي" يسعى إلى تغيير هوية مصر، وخلعها من المحيط العربي الإسلامي، واستبدال اللغة القبطية باللغة العربية، وتسويد المسيحية فيها بدلاً من الإسلام.. أي بدأ البعث والإحياء لمشروع المعلم يعقوب حنا من جديد!..

نعم.. بدأ تخلق هذه النزعة الطائفية.. والسعي إلى تحقيق هذا الحلم ـ الذي يبدو مجنونًا! ـ .. وتناثرت وتراكمت وتكاملت ـ في الطائفة الأرثوذكسية ـ تحديدًا ـ الأفكار والوقائع التي تقود في هذا الاتجاه.. اتجاه تفتيت مصر، وتغيير هويتها القومية والحضارية.. والارتداد بها إلى الوراء أربعة عشر قرنًا!..

ـ فيكتب القمص "سرجيوس" (1883- 1964م) في مجلة "المنارة" ـ بتاريخ 1947/12/6م ـ يقول:
"إن أرض الإسلام هي الحجاز فقط، وليست البلاد التي يعيش فيها المسلمون"!

ـ ويعترف "نظير جيد" ـ في مقال له بمجلة "مدارس الأحد" ـ بتاريخ يناير سنة 1952م ـ بتزعمه لجماعة ذات نزعة طائفية سنة 1948م ـ العام التالي لتخرجه من الجامعة! ـ .. حتى لقد ذهب إليهم ـ أي إلى جماعة نظير جيد ـ نجيب اسكندر باشا ـ وزير الصحة في حكومة النقراشي باشا (1305 ـ 1368هـ ـ 1888 ـ 1948م) قائلاً لهم ـ كجماعة ـ :
"الحساب من تعملون؟!.. أنتم تهددون وحدة العنصرين"!..

كما يعلن نظير جيد ـ في هذا المقال ـ :
"إن المسلمين قد أتوا وسكنوا معنا في مصر"! ـ أي أن المسلمين المصريين جالية محتلة لمصر منذ أربعة عشر قرنًا!(1)

ـ وفي أول شهر توت ـ رأس السنة الفرعونية ـ وعيد الشهداء عند الأرثوذكس سنة 1669ق ـ 11 سبتمبر سنة 1952م ـ تتبلور هذه النزعة الطائفية العنصرية الانعزالية في (جماعة الأمة القبطية) التي استقطبت خلال عام واحد 92.000 من شباب الأرثوذكس.. والتي أعلنت عن "مشروع قومي"، وليس مجرد مطالب لأقلية دينية، أعلنت:

1ـ أن الأقباط يشكلون أمة (2).. ويطلبون حذف النص الدستوري الذي يقول إن الإسلام دين الدولة!.. وإن اللغة العربية هي لغتها!.. وذلك ليكون الدستور مصريًا.. وليس عربيًا ولا إسلاميًا.. وإعلان "أن مصر كلها أرضنا التي سلبت منا بواسطة العرب المسلمين منذ 14 قرنًا.. وأننا سلالة الفراعنة.. وديانتها هي المسيحية.. وسيكون دستورنا هو الإنجيل.. وتكون لغتنا الرسمية هي اللغة القبطية..

وكان لهذه الجماعة علمها وزيها الخاصين بها.. وكان المعلم يمثل صليبًا منصوبًا في الإنجيل.. كما كان لها نشيد خاص تنشده في جميع الاحتفالات والاجتماعات.. كما افتتحت في المحافظات مدارس لتعليم اللغة القبطية بالمجان!!(3)

ولقد حاولت هذه الجماعة ـ الطائفية.. العنصرية ـ ضم قيادة الكنيسة إلى هذا المخطط.. فلما رفض البابا يوساب الثاني (1946 ـ 1956م) ذلك، اختطفوه.. وذهبوا به إلى دير صحراوي.. وأجبروه على التنازل عن البابوية!..

فلما اعتقلت حكومة ثورة يوليو بعض قيادات هذه الجماعة ـ وفي مقدمتهم المحامي إبراهيم هلال ـ وحلت التنظيم في 24 إبريل سنة 1954م ـ وأحالتهم إلى المحاكمة.. دخلت قيادات أخرى من هذا الاتجاه الطائفي الانعزالي ـ في مقدمتهم نظير جيد ـ إلى الدير في 18 يوليو سنة 1954م.. سالكة طريق الرهبنة، لتصل إلى قمة الكنيسة في 14 نوفمبر سنة 1971م.. ولتحقق ـ "بالانتخاب" ـ سيطرة هذه النزعة الطائفية العنصرية على الكنيسة.. بعد أن فشل تحقيق هذه السيطرة ـ سنة 1954م ـ "بالانقلاب"!!..

ـ ولقد بدأ ـ منذ ذلك التاريخ ـ مسلسل "الفتنة الطائفية"، الذي قادته الكنيسة.. الأمر الذي يطرح السؤال ـ الذي لم يلتفت إليه الكثيرون ـ وهو:
لماذا لم تكن بمصر المعاصرة فتنة طائفية قبل هذا التاريخ ـ نوفمبر سنة 1971م ـ؟!:
وعلى أرض الواقع ـ واقع الفتنة الطائفية ـ توالت الحوادث والأحداث:

ـ فتم الخروج بالكنيسة ـ لأول مرة ـ عن رسالتها الروحية ونهجها التاريخي.. وتحويلها إلى حزب سياسي.. ودولة داخل الدولة ـ وأحيانًا فوق الدولة ـ .. وسحب المسيحيين من مؤسسات المجتمع والدولة إلى "دولة الكنيسة ومجتمعها"..

ـ وبدأ تفجير وقائع الفتنة الطائفية ـ بداية بأحداث الخانكة في نوفمبر سنة 1972م ـ منتهزة فرصة انشغال الدولة بالإعداد لحرب أكتوبر سنة 1973م.. مع استمرار وقائع هذه الفتنة الطائفية، في ظل الحماية الأمريكية، والتدخل الأمريكي في شئون مصر الداخلية، بدعوى حماية المسيحيين من الاضطهاد!.. ولقد استمرت وقائع هذه الفتنة، رغم تغير قيادة الدولة.. وتعاقب الحكومات.. وتغير المواقف من الجماعات والأحزاب!..

1- ففي 17 و18 يوليو سنة 1972م عقدت قيادة الكنيسة مؤتمرًا بالإسكندرية، اتخذت فيه قرارات طائفية ـ لا علاقة لها بالرسالة الروحية للكنيسة ـ وأبرقت بهذه القرارات إلى مؤسسات الدولة "بلهجة صدامية"، مهددة "بالاستشهاد" إذا لم تستجب الدولة لهذه المطالب!..

2- وفي نفس التاريخ ـ 1972/7/18م ـ وعلى هامش المؤتمر ـ تم الإعلان للخاصة ـ في محاضرة بالإسكندرية ـ بالكنيسة المرقسية الكبرى ـ حضرها خاصة الخاصة من رجال الدين وبعض الأثرياء ـ تم الإعلان عن معالم المشروع الطائفي العنصري الانعزالي، الذي يطمع في تغيير الهوية.. والواقع.. والخريطة.. والحضارة.. والتاريخ.. ـ بالنسبة لمصر ـ !..

تلك المحاضرة التي قال فيها كبيرهم:

"إن الخطة موضوعة لكل جانب من جوانب العمل على حدة في إطار الهدف الموحد..

لقد عادت أسبانيا إلى أصحابها المسيحيين بعد أن ظلت بأيدي المستعمرين المسلمين قرابة ثمانية قرون..

وفي التاريخ المعاصر عادت أكثر من بلد إلى أهلها بعد أن طردوا منها منذ قرون طويلة؟!..

والمطلوب: مقاطعة المسلمين اقتصاديا، والامتناع عن التعامل المادي معهم امتناعا مطلقًا إلا في الحالات التي يتعذر فيها ذلك..

والعمل على زحزحة أكبر عدد من المسلمين عن دينهم، وتشكيك الجموع الغفيرة منهم في كتابهم وصدق محمد.. مع التزام الهدوء واللباقة والذكاء في ذلك، منعًا لإثارة حفيظة المسلمين أو يقظتهم.. مع مجاملتهم في أعيادهم حيثما يكون الاختلاط..

واستثمار النكسة والمحنة الحالية لصالحنا، فلن نستطيع إحراز أية مكاسب أو أي تقدم نحو هدفنا إذا انتهت المشكلة مع إسرائيل سواء بالسلم أو الحرب!..

والعمل على:

أـ تحريم تحديد النسل أو تنظيمه بين شعب الكنيسة.

ب ـ وتشجيع تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين (65%من الأطباء والقائمين على الخدمات من شعب الكنيسة)..

جـ ـ ووضع الحوافز للأسر المسيحية الفقيرة لزيادة الإنجاب.

د ـ والتنبيه على العاملين بالخدمات الصحية كي يضاعفوا الخدمات الصحية لشعبنا، لتقليل نسبة الوفيات، وعمل العكس مع المسلمين..

هـ ـ وتشجيع الزواج المبكر وتخفيض تكاليفه، بتخفيف رسوم فتح الكنائس ورسوم الإكليل بكنائس الأحياء الشعبية.

و ـ وتحريم إسكان المسلمين في عمارات المسيحيين.. وطرد المخالفين من رحمة الرب ورعاية الكنيسة.

وذلك لجعل شعب الكنيسة نصف الشعب المصري في مدة 12 أو 15 سنة من الآن، ليتساوى عدد شعب الكنيسة مع عدد المسلمين لأول مرة منذ الاستعمار العربي والغزو الإسلامي لبلادنا"(4)

3- وتم احتفال الكنيسة بذكرى القمص سرجيوس ـ الذي كتب في صحيفة "المنارة" بتاريخ ـ 1947/12/6 ـ داعيًا إلى اعتبار الحجاز فقط هي دار الإسلام.(5)

4- وفي 18 نوفمبر سنة 1972م ـ إبان أحداث الخانكة ـ وفي قمة حرج الدولة وهي تجاهد للقيام بحرب أكتوبر ـ ومع اقتراب عام على تولي البابا شنودة البابوية ـ حرض البابا رجال الكهنوت على التظاهر والصدام العنيف مع الدولة ـ وهما أمران غير مسبوقان في تاريخ الكنيسة حتى في ظل الاضطهاد الروماني!! ـ .. وقال لرجال الكهنوت:

ـ "أنتم كم؟"

ـ فقالوا: مائة وستون.

ـ فقال لهم : عايزكم ترجعوا ستة عشر كاهنًا. والباقي يفترشون الأرض افتراشًا، ويستشهدون"(6)

وكان هذا إعلانًا عن سياسة الصدام الكنسي مع الدولة المصرية لأول مرة في تاريخ الكنيسة وتاريخ مصر الإسلامية!..

5- وفي 1977/1/17م عقدت قيادة الكنيسة مؤتمرات دعت إليه "ممثلي الشعب القبطي" ـ حسب تعبيرها ـ . وضم هذا المؤتمر يجمع الآباء كهنة الكنائس، والمجلس الملي، ورؤساء وأعضاء الجمعيات والهيئات القبطية، والأراخنة أعضاء مجالس الكنائس وكان هذا المؤتمر تتويجًا لمؤتمرات تحضيرية عقدت في 5و6و7 سنة 1976م وفي

1976/12/17م.. واتخذ هذا المؤتمر القرارات التي تعلن عن "المشروع السياسي للكنيسة"، من: بناء الكنائس .. إلى معارضة توجه الدولة نحو الشريعة الإسلامية ـ (رغم أنه تطبيق لنص دستوري متفق عليه) ـ إلى التمثيل السياسي والنيابي والإداري والوظيفي للأقباط في مجلس الوزراء، ومجلس الشعب، والمحليات، والمحافظين، ومختلف مؤسسات الدولة والقطاع العام.. وحتى طلب القضاء على التوجه الإسلامي في الجامعات!.. ـ كما تحدث المؤتمر باسم "أقدم وأعرق سلالات مصر"!!(7).. ثم الاعتراض ـ أواخر سنة 1979م ـ على تقنين الشريعة الإسلامية، والتهديد بإسالة "الدماء للركب من الإسكندرية إلى أسوان"!

6- وإبان اشتعال الحرب الأهلية في لبنان (1975 ـ 1990م) ذهب شبان أرثوذكس ـ تحت سمع الكنيسة وبصرها .. وفي ظل صمت الرضى! ـ إلى لبنان، وحاربوا في صفوف المارونية السياسية، المتحالفة مع إسرائيل ضد عروبة لبنان ووحدته وانتمائه القومي والحضاري!.. حاربوا مع "الكتائب اللبنانية".. وهكذا أصبح للكنيسة المصرية مسلحون ومقاتلون، لأول مرة في التاريخ!!..(8)

---

* هوامش:

1ـ انظر نص هذا المقال في كتاب: د. سليم نجيب (الأقباط عبر التاريخ) ـ تقديم: مجدي خليل ـ طبعة القاهرة ـ دار الخيال سنة 2001م.

2ـ لقد لاحظت استخدام "بونابرت" مصطلح "الأمة القبطية" في مراسلاته مع خونة النصارى الذين تعاونوا معه.. وكذلك استخدامهم لهذا المصطلح ـ انظر: عادل جندي "المخططات الخطيرة" ـ صحيفة "وطني" في 2006/7/2م.

3- (الأقباط عبر التاريخ) ص184و185.

4ـ الشيخ محمد الغزالي (قذائف الحق) ص57 ـ 65 ـ طبعة صيدا ـ المكتبة العصرية ـ لبنان ـ بدون تاريخ ـ (ولقد حدثني الشيخ الغزالي ـ عليه رحمة الله ـ أن أحد ضباطا الأمن القومي قد جاءه بنص المحاضرة، مكتوبًا بالقلم الرصاص.. وأعطاه للشيخ إبراءًا لذمته أمام الله.. ولقد أعطى الشيخ صورة من المحاضرة للشيخ عبد الحليم محمود.. ثم نشر خبر هذه المحاضرة بكتابه (قذائف الحق) ـ الذي صودر بمصر ـ وطبع خارجها.

5ـ المرجع السابق. ص57 ـ 65.

6ـ القمص اندراوس عزيز (الحقائق الخفية في الكنيسة القبطية) ص 27. والنقل عن: ممدوح الشيخ ـ صحيفة (الأسبوع) في 2000/2/28م.

7ـ د. محمد مورو (يا أقباط مصر انتبهوا) ص259 ـ 273. طبعة القاهرة سنة 1998م.

8ـ يشير أبو سيف يوسف إلى تعاطف الهيئة القبطية الأمريكية ـ التي تكونت في أمريكا سنة 1974م ـ مع "الكتائب اللبنانية" وإلى تعاون مجلتها ـ (الأقباط) ـ مع الصهاينة.. وقولهم عن الإسلام إنه أخطر على الغرب ـ المسيحي ـ اليهودي ـ من الشيوعية ـ انظر (الأقباط والقومية العربية) ص172 ـ والنقل عن (التطور الفكري لدى جماعات العنف الدينية في مصر) ص242و336 وانظر كذلك ـ محمد جلال كشك (ألا في الفتنة سقطو) ص34 طبعة القاهرة سنة 1982م.

9- الكنيسة واللعب بورقة أقباط المهجر

7- وفي عقد الثمانينيات ـ من القرن العشرين ـ أقام بعض أقباط المهجر ـ في ألمانيا ـ "حكومة منفى"!.. كبالونة اختبار، وسابقة ليس لها نظير في التاريخ!..
وصمتت الكنيسة ـ صمت "يلعب بكل الأوراق" ـ .. ولقد سألت البابا شنودة في أحد لقاءاتنا ـ بنقابة الأطباء ـ عن الموقف من هذا الذي أعلن عنه في ألمانيا؟.. فقال: إنهم مجانين.. لكنه قالها لي ـ وفيما بيننا ـ .. وصمت عن الإدانة العلنية لهذه المؤشرات الطائفية العنصرية الانعزالية.. ولا نقول "الحرمان الديني"، الذي كثيرًا ما استخدمه ضد المعارضين لانحراف الكنيسة إلى الطريق الذي جرها إليه!..
8- ثم توالت أحداث التوتر الطائفي.. والتوجه الصدامي للكنيسة مع الدولة ـ لأول مرة في تاريخها ـ والتي بلغت الذروة في أحداث مارس سنة 1981م، عندما اضطر رئيس الجمهورية إلى عزل البابا من إدارة الكنيسة، وتعيين لجنة خماسية من رجال الكهنوت لإدارتها..
9- وحتى بعد تجاوز هذه الأزمة، وإعادة الدولة للبابا.. فلقد استمر إعلان الكنيسة عن التحدي لمؤسسات الدولة.. ورفض تنفيذ أحكام القضاء.. والتصريح بأن الكنيسة فوق القانون!..
10- وزاد لعب الكنيسة بورقة أقباط المهجر.. والصمت على جماعاتهم وجمعياتهم التي تطالب "بتحرير مصر من العروبة والإسلام"!.. والتي تدعو للتدخل الأجنبي في شئون مصر، والضغط على حكومتها.. والتهديد ـ علنًا ـ بإحداث "دارفور جديد ـ قبطية ـ " في مصر!.. وتسييرهم للمظاهرات التي تسيء إلى صورة مصر وسمعة نظامها السياسي وأغلبيتها المسلمة.. ودفع النواب والشيوخ الصهاينة في الكونجرس الأمريكي إلى تقديم مشاريع القوانين التي تدين مصر وتطلب فرض العقوبات الأمريكية والدولية عليها! ـ بدعوى اضطهادها.. بل وإبادتها للأقباط!!ـ..(1)
11- كذلك صمتت الكنيسة ـ صمت الرضي والمباركة ـ عن اعتماد الكونجرس الأمريكي ـ بالقانون رقم 2764 ـ لـ 50% من المعونات الأمريكية غير العسكرية ـ المخصصة لمصر ـ وذلك لتمويل وتقوية المنظمات القبطية ـ التي تسمي نفسها منظمات حقوقية للمجتمع المدني ـ وعددها 40 منظمة! ـ من وراء ظهر الحكومة المصرية! ـ .. وكذلك لمساعدة القرى المصرية التي تسكنها نسبة عالية من الأقباط، بدعوى "تطوير جالية الأقباط المسيحيين"!!.. وتوجيه أغلب المعونات الأمريكية التي تقدم للقطاع الخاص المصري لتكوين "جيل من شباب الأعمال الأقباط"!!..
نعم.. لقد صمتت الكنيسة ـ صمت الرضي والمباركة ـ عن هذه الممارسات الأمريكية، التي حولت الأقباط إلى "جالية" تمولها أمريكا.. والتي أعادت إلى الأذهان قرارات الكونجرس الأمريكي بتمويل المعارضة العراقية التي تحالفت مع أمريكا لغزو العراق ـ بدعوى تحرير المضطهدين فيه ـ سنة 2003م! ـ ..
لقد صمتت الكنيسة عن ذلك، رغم نشر أنبائه في صحيفة "المصري اليوم ـ 2007/8/2م ـ و2007/8/10م وفي صحيفة "الدستور" ـ 2007/8/7م.. بل وكتابة الكاتب الوطني الليبرالي صلاح الدين حافظ أربع مقالات في (الأهرام) حول هذا الموضوع البالغ الخطورة!(2)
12- وفي الوقت الذي كان هذا المشروع الطائفي العنصري الانعزالي ـ الذي تقوده الكنيسة ـ يقيم شقاقًا وفصامًا نكدا مع الوحدة الوطنية لمصر، ومع الهوية العربية والإسلامية لشعبها.. كانت الكنيسة تتوجه غربًا، طالبة الدعم الغربي لهذا المشروع..
أ ـ فلقد انضمت الكنيسة إلى "مجلس الكنائس العالمي" ـ الذي أقامته المخابرات الأمريكية سنة 1948م أداة في الحرب الباردة ضد الشيوعية ومعسكرها الاشتراكي.. وذلك بعد تاريخ طويل من الرفض المسيحي المصري للانضمام لهذا المجلس!.
ومجلس الكنائس العالمي هذا هو صاحب الدعوة إلى "ضرورة تدخل الكنائس داخل البلاد المستقلة حديثًا في سياسة بلادها".. ولذلك ابتدع نظرية لاهوتية تقول بأن نشاط الدولة في كل نواحيه ـ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ هو تحت سلطان الله، ولابد للكنائس من العمل على توجيه نشاط الدولة الوجهة التي تتفق وإرادة الله والتي تنطلق مع اتجاه الكنائس الغربية:"(3) وهو توجه انقلابي ـ قام به هذا المجلس ـ على المسيحية ورسالة كنائسها!.. ويكفي أن نعلم أن جون فوستردلاس (1888 ـ 1959م) قد أعلن من على المنصة في الاجتماع التأسيسي لهذا المجلس: "أن نبشر بالمسيحية فهذا معناه أننا نبشر بالحضارة الغربية"!(4)
ب ـ وأصبحت الكنيسة ـ بواسطة أقباط المهجر ـ مدافعة عن "العولمة الأمريكية" التي أهدرت تراث الإنسانية في الشرعية الدولية والقانون الدولي والاحترام لسيادة الدولة الوطنية والقومية.. فأدبيات أقباط المهجر ـ الذين تلعب الكنيسة بأوراقهم ـ تدافع عما تسميه أمريكا "التدخل الإنساني في الشئون الداخلية للدول".. بدعوى أننا في "عصر

الدول المنقوصة السيادة"!!.. كما دافعت ـ هذه الأدبيان ـ عن غزو أفغانستان والعراق والصومال.. وناصبت المقاومة الإسلامية العداء!..
جـ ـ كذلك، تفاوضت الكنيسة مع الفاتيكان.. وتم الإعلان عن التقارب بين الكنيستين ـ في 10 مايو سنة 1973م ـ في ختام أول زيارة يقوم بها بابا الأرثوذكس المصريين إلى الفاتيكان ـ من 4 إلى 10 مايو سنة 1973م ـ .. وتم التأكيد على هذا التقارب في "بيان تاريخي مشترك" في 22 يونيو سنة 1979م.(5)

13 ـ وزاد ثقل "الخارج" على "الداخل" في "رعية الكنيسة".. فأصبح التأثير الأكبر على سياستها وتوجهاتها لأقباط المهجر، المتحالفين ـ في جملتهم ـ مع مراكز الضغط الصهيونية ومع اليمين الديني والمحافظين الجدد والمسيحية الصهيونية في أمريكا.. الأمر الذي جعل قيادة الكنيسة تصمت ـ صمت الرضي والمباركة ـ عن الأنشطة المعادية لمصر من قبل الجمعيات القبطية في الخارج.
ولقد أثرت هذا "المتغير" الجديد ـ زيادة نفوذ أقباط المهجر ـ على "الطابع الوطني" ـ التاريخي ـ للكنيسة الأرثوذكسية المصرية.. فأصبح هواها مع "الخارج ـ الغربي" أكثر مما هو مع "الداخل الوطني والقومي"!..
14ـ وفي مواجهة الكنيسة لهوية الأمة، وإسلامية حضارتها، ومع تصاعد تيار اليقظة الإسلامية.. زادت الكنيسة من تحالفها ـ غير المقدس ـ مع "غلاة العلمانيين" ضد التوجهات الإسلامية.. بل لقد انزلقت ـ لأول مرة في تاريخها ـ إلى المناطق الحساسة والخطرة .. فمارست ـ وهي أقلية ـ نقد عقائد الأغلبية (6).. ووقعت في استفزازات التنصير لبعض فقراء المسلمين.. وتركت ـ عمليًا.. وهي التي تملك مفاتيح "الحرمان الديني" ـ المجال مفتوحا للفضائيات التي تستفز المسلمين وتفتري على عقائدهم.. الأمر الذي فضح تحالفها مع حركة التنصير الغربية للمسلمين، ووضعها في خندق واحد مع المخططات الغربية المعادية للإسلام والمسلمين.
15 ـ ومارست الكنيسة ـ لأول مرة في تاريخها ـ إنتاج وعرض وتوزيع المسرحيات التي تهاجم الإسلام ـ دين الدولة والأغلبية ـ وتسيء إلى رموزه ومقدساته.. وفتحت قاعاتها لمحاضرات كنسية تتهجم على رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الإسلام.. بل وطبعت للكنيسة ـ ووزعت بالمجان ـ كتبًا لبعض غلاة العلمانيين تقدح في الإسلام وتاريخه وأمته وحضارته.. وتهيل التراب على اليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. كما أنتجت الأفلام ـ الشرائط "المدبلجة" التي تفتري على عدد من رموز علماء الإسلام؟!..
16 ـ وفي سنة 2004م.. وعندما أسلمت السيدة وفاء قسطنطين ـ وكانت زوجة لكاهن محافظة البحيرة ـ أصرت الكنيسة على استردادها للكنيسة ـ وهو قهر "واغتصاب ديني"!.. وسيرت كذلك، المظاهرات ـ في المهاجر ـ وفي المقر البابوي ـ بالقاهرة ـ وفي كثير من الكنائس .. وأرسلت منظمات قبطية في المهجر رسائل استدعاء الحماية "لأرييل شارون" رئيس وزراء إسرائيل ـ قائلين له: لقد حمى أجدادنا يوسف ـ عليه السلام ـ فتعال لتحمي الأقباط المصريين!!..
وبهذه الخيانة الوطنية والقومية والحضارية هتف المتظاهرون في مقر البابوية ـ بالقاهرة ـ تحت سمع الكنيسة وبصرها ـ هتفوا بهتافات:
"تعال احمنا يا شارون"!!
"يا أمريكا فينك فينك.. أمن الدولة بينا وبينك"!!..
واعتدى هؤلاء المتظاهرون بالحجارة على قوات الأمن، وأوقعوا في ضباطها وجنودها الإصابات!.. فكظمت غيظها ـ وهي التي اعتادت الفتك بالإسلاميين! ـ .. ولما حدث وقبضت قوات الأمن على بعض هؤلاء المتظاهرين المعتدين.. غضب رأس الكنيسة، واعتكف في الدير، وأعلن الصيام الاحتجاجي، حتى أفرجت الشرطة عن الذين اعتدوا عليها.. وطلبوا حماية أمريكا وإسرائيل!!..

***

إلى غير ذلك.. ومثل ذلك.. من الاستفزازات لمشاعر الأمة.. والصدامات مع الدولة.. الأمر الذي رفع درجات الحرارة في التوتر الطائفي.. وأظهر الكنيسة في صورة "الدولة" التي تتحدى شرعية الدولة الوطنية، وهوية الأمة القومية والحضارية.. مما أدى إلى وضع رعية الكنيسة في صورة "الجالية" التي تستقوي بالأعداء على الأمة والدولة، وتستعديهم ليتدخلوا في شئون مصر، ولينتقصوا من سيادتها واستقلالها..
ولقد أثمرت ممارسات الكنيسة هذه تكريس العزلة لأبنائها عن المجتمع، وإحاطتهم بكراهية غير مسبوقة في تاريخ العلاقة الوطنية والقومية والحضارية بين المسلمين والمسيحيين.

وهذا هو الذي كانت تريده الكنيسة من وراء مشروعها الطائفي العنصري الانعزالي، الساعي إلى تفجير الشقاق بين المسيحيين والمسلمين!..

***

ـ ولقد ساعد الكنيسة على أن تصبح "دولة داخل الدولة" ـ لها "مشروعها السياسي ـ القومي ـ الانفصالي" ـ استقلالها المالي عن الدولة.. وهو الذي ضمن لها استقلال القرار وحرية الحركة في التخطيط والتنفيذ..
ـ فنظام ثورة يوليو سنة 1952م الذي استولى على الأوقاف الخيرية الإسلامية ـ ومنها أوقاف الأزهر والمساجد ـ قد ترك للكنيسة أوقافها..
ولقد أدى هذا التطور الخطير إلى تبعية المؤسسات الإسلامية للدولة، ومن ثم خضوعها لسياستها ولأجهزتها الأمنية.. بينما ظلت "دولة الكنيسة" ومؤسساتها بعيدة عن هذه الرقابة، وهذه القيود..
ولقد زاد من هذا الاستقلال المالي للكنيسة، أن مصر التي أصدرت ـ بعد ثورة يوليو سنة 1952م ـ عدة قوانين للإصلاح الزراعي ـ ألغت بها الإقطاع، قد تركت الكنيسة لتكون الإقطاعي الوحيد والكبير في مصر!.. فالأديرة ـ التي كانت وظيفتها تاريخيًا: العبادة، والانقطاع عن الدنيا وأهلها ـ قد غدت دوائر إقطاعية، ومؤسسات إنتاج زراعي، ضمت الآلاف المؤلفة من الأفدنة، التي أحاطتها الأسوار العالية، لتتم خلفها العديد من الأنشطة البعيدة عن رقابة الدولة والمجتمع ـ حتى لقد فوجئت الدولة ـ في بعض المنازعات بين هذه الأديرة وبين الأهالي على حيازة الأرض الزراعية ـ فوجئت بالرهبان الذين يحملون السلاح ويطلقون النيران!.. كما حدث في "دير أبو فانا" بمحافظة المنيا، في مايو سنة 2008م!..
لقد ألغت الدولة المصرية الإقطاع.. وتركت "دولة الكنيسة" لتكون الإقطاعي الأكبر والوحيد في البلاد!.. الأمر الذي دعم من الاستقلال المالي للكنيسة، وأتاح لها سلطانها ماليًا ـ دعمته المساعدات الخارجية.. والتمويل الأجنبي ـ فزاد من دعم المشروع السياسي الطائفي الانعزالي الذي ترعاه منذ 14 نوفمبر سنة 1971م!..
وزادت المفارقات في هذا الميدان منذ عقد التسعينيات من القرن العشرين، عندما أدت المواجهة بين الدولة وبين بعض الجماعات الإسلامية إلى "تأميم المساجد" وإخضاعها بالكامل للسلطة الأمنية.. بينما زادت حرية الكنيسة وحرية النشاط في مؤسساتها..
ـ فأصبحت المساجد تغلق عقب الصلاة.. بينما الكنائس مفتوحة آناء الليل وأطراف النهار!..
ـ وأصبح منبر المسجد مؤممًا ومقيدًا.. ومنبر الكنيسة حرًا!..
ـ وغدا اعتكاف الشباب المسلم ليالي معدودة بالمساجد في شهر رمضان من المحظورات.. وفي حال السماح به ـ تحت رقابة الأمن.. وبإذن منه يصبح بمثابة الطريق لوضع الشباب المعتكف في قوائم المشبوهين والمراقبين والمرشحين للاعتقالات!.. بينما كل أبواب الحريات مفتوحة أمام الشباب المسيحي للانخراط في كل ألوان النشاط الكنسي ـ الديني والدنيوي على حد سواء! ـ .. حتى لقد ناديت، وتمنيت ـ منذ عقد التسعينيات ـ أن تتساوى مساجد مصر بكنائسها!!..
ـ كما أصبحت كل قيادات المؤسسات الإسلامية ـ في الأزهر والأوقاف ـ معينة.. وتحت رقابة الأمن ـ بينما كل القيادات الكنيسة طليقة من أية قيود.. الأمر الذي أدى إلى تحجيم العمل الإسلامي.. وإلى تمدد سلطان الكنيسة في البلاد!..

هامش :

1ـ مثل مشروع القرار 1303 ـ يوليو سنة 2008م ـ انظر صحيفة الدستور في 2008/7/30م.
2ـ صلاح حافظ: (الأهرام) "عن المعونة والمعانيين والمتعاونين" ـ في 2007/8/1م. ـ ومقال "المعونة الأمريكية والتمييز بين المسلمين والمسيحيين" في 2007/8/8م. ـ ومقال "الاستخدام السياسي للمعونات الأجنبية" في 2007/8/15م. ـ ومقال "من المسئول: حكومتنا أم حكومتهم؟" في 2007/8/29م.
3ـ د. وليم سليمان قلادة (الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار الصهيونية) ص61 و62 ـ طبعة القاهرة ـ دار الكاتب العربي ـ بدون تاريخ.
4ـ محمد حسنين هيكل (خريف الغضب) ص284ـ طبعة القاهرة سنة 1948م.
5ـ (الأقباط عبر التاريخ) ص48 ـ 155.

6- انظر رسالة البابا شنودة (القرآن والمسيحية) مطبعة المجد - محرم بك - الإسكندرية .. وكذلك ما كتبه في ديسمبر سنة 1970م - (الهلال) عقب توليه البابوية. وحواره مع سناء السعيد بصحيفة "الدستور" ردا على د. زغلول النجار - - وراجع في ذلك: د. محمد جمعة عبد الله (رد افتراء المبشرين على آيات القرآن الكريم) ص 93 - 199 طبعة سنة 1985م.

10- التنظير العنصري للإحياء القومي القبطي

وعلى الجانب الفكري.. والتنظير للمشروع الطائفي العنصري الانعزالي للكنيسة الأرثوذكسية المصرية.. بدأت التنظير للفصام مع هوية مصر العربية والإسلامية، فبعد إجماع الأمة ـ مسلمين ونصارى ويهود وعلمانيين ـ على النص ـ في دستور سنة 1923م ـ على أن دين الدولة المصرية هو الإسلام، وأن لغتها هي العربية.. وبعد إعلان مكرم عبيد باشا (1889 ـ 1961م) عن عروبة مصر والمصريين، حتى قبل قيام جامعة الدول العربية.. وقوله سنة 1939م:

"المصريون عرب.. والوحدة العربية من أعظم الأركان التي يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة في الشرق العربي.. إنها حقيقة قائمة وموجودة، لكنها في حاجة إلى تنظيم لتصير البلاد العربية كتلة واحدة، وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة.."(1)

وإعلانه عن أن الإسلام هو هوية مصر الحضارية، بالنسبة لكل أبنائها وأديانها.. وقوله:

"نحن مسلمون وطنًا، ونصارى دينًا. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارًا. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين.."(2)

وبعد موافقة 63% من مسيحيي مصر على تطبيق الشريعة الإسلامية ـ بما فيها الحدود ـ في المنظومة القانونية المصرية سنة 1985م.(3)

بعد هذه الحقائق الشاهدة على الوحدة الوطنية المصرية ـ على أسس قومية وحضارية ـ وجدنا النزعة العنصرية الطائفية الانعزالية ـ التي تبلورت عقب الحرب العالمية الثانية.. والتي أعلنت عنها (جماعة الأمة القبطية) ـ في ظلال نجاح المشروع العنصري الصهيوني ـ .. وجدنا هذه النزعة تجد طريقها إلى كتابات القيادات الكهنوتية في الكنيسة الأرثوذكسية، على النحو الذي يتحدث عن "مسألة ومشكلة قومية قبطية".. وليس "مطالب لأقلية مسيحية" هي جزء أصيل في نسيج الشعب المصري..

ـ فيكتب الأنبا غريغريوس (1919 ـ 2002م) ـ الرجل الثاني في الكنيسة.. وأسقف التعليم والبحث العلمي والدراسات العليا ـ فيقول:

"إن اللغة القبطية هي لغتنا.. وهي تراث الماضي، ورباط الحاضر، وهي من أعظم الدعائم التي يستند إليها كيان الشعب المسيحي.. وهي السور الذي يحمينا من المستعمر الدخيل"!!(4)

فيتحدث عن لغة "مختلفة" عن اللغة القومية لمصر.. وعن ثقافة مختلفة عن الثقافة العربية.. وعن شعب مسيحي، متميز عن الشعب المصري، وعن المسلمين المصريين ـ أي 95% من المصريين ـ كمستعمر دخيل!!.. أي يفصح ـ باسم الكنيسة ـ عن تبني هذه الكنيسة للمشروع القومي القبطي الذي أعلنته (جماعة الأمة القبطية) سنة 1952م!..

ـ ويدعو الدكتور كمال فريد إسحق ـ أستاذ اللغة القبطية بمعهد الدراسات القبطية، التابع للكنيسة ـ "إلى أن تكون اللغة القبطية هي اللغة القومية لمصر" ـ (!!!) ـ وليست اللغة العربية..(5)

ـ أما عميد هذا المعهد ـ معهد الدراسات القبطية ـ الدكتور رسمي عبد الملك ـ فيدعو إلى:

"أن يكون محو أمية الشعب المصري باللغة القبطية، لا العربية"!!.. ويعلن عن مخطط إحلال اللغة القبطية محل اللغة العربية.. وكيف أنه "يوجد في كل كنيسة فصل لتعليم اللغة القبطية"!!.. أي أننا ـ في مصر ـ بإزاء نظام تعليمي، فيه آلاف الفصول الدراسة التي تعمل الكنيسة ـ بواسطتها ـ على تغيير اللغة القومية ـ التي نص عليها الدستور.. ومثلت ركنًا من أركان ثوابت الهوية المصرية منذ نحو أربعة عشر قرنًا.. والتي اختارها الشعب المصري اختيارًا حرًا!!..

كما أعلن عميد معهد الدراسات القبطية ـ هذا ـ أن المجال سيفتح لرسائل الماجستير والدكتوراه في اللغة القبطية، ولعمل إحصائيات حول المتحدثين باللغة القبطية في تعاملهم اليومي داخل المنزل.. وأكد وجود أعداد كبيرة تقبل على تعلم اللغة القبطية، وعائلات لا تتحدث في منازلها إلا باللغة القبطية"!!(6)

أي أننا أمام انقلاب ـ فكري وعملي ـ على الهوية العربية لمصر.. بلورته (جماعة الأمة القبطية) سنة 1952م.. وترعاه وتنفذه الكنيسة الأرثوذكسية بعد استيلاء التيار الطائفي العنصري الانعزالي على قياداتها في 14 نوفمبر سنة 1971م.

ـ وإذا كان الأنبا مرقس ـ المتحدث الرسمي باسم الكنيسة الأرثوذكسية.. وعضو المجمع المقدس.. ورئيس لجنة الإعلام بهذا المجمع أي "وزير إعلام الكنيسة".. وأسقف شبرا الخيمة ـ قد أعلن:

"أن مصر هي بلد الأقباط، وهم أصحابها"!!(7).. فإنه قد طالب بأن يكون أول شهر توت ـ عيد النيروز الفرعوني ـ إجازة رسمية للدولة المصرية، باعتباره عيد رأس السنة الفرعونية(8) ـ وهو ـ للتذكرة ـ اليوم الذي أعلن فيه عن قيام

(جماعة الأمة القبطية) سنة 1952م ـ التي أعلنت أن قضية المسيحيين ـ في مصر ـ هي "قضية قومية" ـ قضية لغة.. وثقافة.. وعنصر.. وأرض مغتصبة منذ أربعة عشر قرنًا ـ!!..

ـ وإذا كانت أدبيات الشعب المصري تتحدث عن "الشعب المصري" و"الأمة العربية" و"الحضارة الإسلامية".. أي عن الوطنية والعروبة والإسلام باعتبارها هوية مصر والمصريين جميعًا ـ بكل دياناتهم ـ.. فإن أدبيات الكنيسة الأرثوذكسية دائمة الاستخدام لمصطلحات :

"الشعب القبطي" و"الأمة القبطية" و"شعب الكنيسة" و"الشعب المسيحي"!.. حتى لقد أعلن الأنبا توماس ـ عضو المجمع المقدس.. وأسقف القوصية ـ في محاضرته بمعهد "هديسون" الأمريكي بواشنطن ـ في 18 يوليو سنة 2008م ـ وهو المعهد التابع للمحافظين الأمريكيين الجدد، واليمين الديني ـ أعلن الأنبا توماس على العالم.. وأمام سمع الكنيسة وبصرها ـ أعلن:

ـ "أن الشخص القبطي يشعر بالإهانة إذا قلت له إنك عربي"!

ـ "وأن اللغة القبطية هي اللغة الأم لمصر"!

ـ "وأن الأقباط يعانون ويحاربون خطري التعريب والأسلمة"!

ـ "وأنهم قد وجدوا ثقافتهم تموت، ووجدوا أنفسهم مسئولين عن حمل ثقافتهم والمحاربة من أجلها حتى يأتي الوقت الذي يحدث فيه انفتاح وتعود دولتنا لجذورها القبطية.. وحتى يأتي هذا الوقت، فإن الكنيسة تقوم بدور الحاضنة للحفاظ على هذا التراث القومي المختلف"!

ـ "وأن المسلمين قد خانوا الأقباط منذ الاحتلال العربي لمصر"! (9)

وهكذا أفصح هذا الأسقف ـ في هذه المحاضرة ـ ربما أكثر من غيره ـ عن أن القضية هي قضية قومية.. وليست قضية مطالب لأقلية دينية.. فهي ـ كما جاء في المحاضرة التي صمتت عنها الكنيسة صمت الرضى ـ بل ودافع عنها رموز كبار فيها ـ هي ذات القضية التي أعلنت عنها (جماعة الأمة القبطية) سنة 1952م.. قضية: لغة.. وثقافة.. وعنصر.. ووطن محتل وأرض مغتصبة منذ أربعة عشر قرنًا!!..

لذلك، وجب التوقف أمام أهم الدعاوى التي جاءت بهذه المحاضرة: (صيحة الأقباط ضد التعريب والأسلمة)!..

فنحن ـ بإزاء الدعاوى التي جاءت بهذه المحاضرة ـ لسنا فقط أمام انقلاب على الانتماء للعربية ـ اللغة القومية لمصر ـ وعلى الدستور والعقد الاجتماعي والحضاري الذي توافق عليه المصريون والتزموا به منذ قرون ـ أي أمام "نزعة خوارجية" على ثوابت العقد الذي ارتضته الجماعة الوطنية المصرية.. وإنما نجد أنفسنا ـ علاوة على كل ذلك ـ أمام انقلاب على الحقائق العلمية التي تعارف عليها علماء المصريات واللغات في مصر والعالم أجمع..

ـ فليس صحيحًا أن اللغة القبطية ـ التي جاء الفتح الإسلامي فوجدها بمصر ـ هي اللغة الأم للمصريين.. وإنما هي المسخ الهجين الذي مثل التغريب اللغوي الذي أحدثه الغزو الإغريقي في لغة المصريين.. فكانت أثرًا من آثار هذا التغريب اللغوي، ولم تكن خالصة الوطنية.. فضلاً عن أنها كانت المرحلة الرابعة من المراحل الكبرى لتطور اللغة المصرية.. ولم تكن اللغة الأم بحال من الأحوال.. ذلك أن اللغة المصرية القديمة قد مرت بمراحل أساسية أربعة، قبل مرحلة سيادة اللغة العربية في مصر.. وهذه المراحل هي:

1ـ مرحلة الهيروغليفية: وهي اللغة المقدسة، المكتوبة بالصور.. والتي تعتبر اللغة المكتوبة الأم للمصريين ـ في التاريخ المعروف ـ والتي عبروا بها عن الكلام الشفهي.. ولقد ظلت أداة الكتابة على المباني الأثرية بعد أن حلت الكتابات المختصرة محلها في الحياة العامة، بحيث لم يعد يفهمها إلا الكهنة.

2ـ مرحلة الهيراطيقية: وهي الكتابة المختصرة التي حلت محل الهيروغليفية ـ التي ظلت خاصة بالكتابة على المباني الأثرية ـ.. ولقد استعمل الخط الهيراطيقي حوالي سنة 2000 ق.م.

3 ـ مرحلة الديموطيقية: وهي اللغة المصرية الدارجة، ذات الخط المختصر الذي استعمله المصريون القدماء من حوالي سنة 700 ق.م حتى القرن الثالث الميلادي..

وخط هذه الديموطيقية هو اختصار للهيروغليفية.. وتطور للخط الهيراطيقي الذي استعمل حوالي سنة 2000 ق.م.. وهذه الديموطيقية هي التي وردت على حجر رشيد تالية للهيروغليفية.

4ـ مرحلة اللغة القبطية: وهي لهجة أكثر منها لغة.. تطورت عن اللغة الدارجة الديموطيقية.. ومثلت آخر مراحل اللغة المصرية القديمة ـ الهيروغليفية ـ كما مثلت مرحلة تغريب اللغة المصرية، حيث زاحمتها اللغة اليونانية الغازية.. فمنذ حكم الملوك البطالمة الإغريق (323 ـ 30ق.م) غدت اللغة المصرية تكتب بحروف يونانية، ولم يبق من حروفها المصرية سوى سبعة أحرف لم يجدوا لها نظير في الأحرف اليونانية.. كما استخدمت في قواعدها اللغة اليونانية.. ودخلها الكثير من الكلمات والمصطلحات اليونانية.. فغدت "هجينًا" غير خالصة الوطنية المصرية(10).. وذلك فضلا عن أنها لم تكن اللغة المصرية الأم بحال من الأحوال.

ولذلك، فإن هذه الدعوة إلى إحلال اللغة القبطية محل العربية ـ والحديث عن أنها هي "اللغة الأم" لمصر والمصريين، هو "كذب" في العلم، كما هو "خروج" عن ثوابت الهوية والحضارة والتاريخ بالنسبة لكل المصريين.
ونحن نسأل الدعاة إلى هذا الانقلاب القومي والحضاري ـ بمن فيهم أصحاب الأصوات العالية في المهاجر ـ :
ـ أية فوضى يمكن أن تحدث في العالم لو انتشرت الدعوات لعودة الأمم والشعوب إلى ماضيها السحيق الذي تجاوزه التاريخ؟!.
ـ ولم لا تدعون الأمريكان ـ الذين يحتضنون دعاواكم، لحاجة في نفس يعقوب ـ إلى أن يعودوا إلى اللغة الأم لأمريكا ـ لغة الهنود الحمر ـ خصوصًا مع قرب العهد بسيادتها في تلك البلاد؟!.
.. وكذلك الأمر في أمريكا الجنوبية.. واستراليا.. ونيوزيلانده؟!.. الخ.. الخ..
أم أن أمر هذه الدعوة الشاذة خاص ـ عندكم ـ بالكيد للعروبة والإسلام؟! ـ اللذين اعتنقهما المصريون جميعًا ـ المسلمون منهم والمسيحيون واليهود ـ؟!.
لقد غيرت كل شعوب الدنيا ـ تقريبًا ـ لغاتها أو ديانتها.. أو غيرتهما معًا.. فهل يجوز لعاقل أن يدعوا اليوم كل الجماعات اللغوية ـ والتي تبلغ ألف جماعة لغوية ـ إلى العودة إلى اللغات الأم، التي تكلمت بها في تاريخها القديم؟!..
ثم.. ما هو المفهوم الدقيق لمصطلح "الأم" و"القديم"؟!.. وهل تقودنا مثل هذه الدعوات ـ المجنونة ـ إلى السعي للعودة إلى اللغة الأم ـ الحقيقية ـ لغة آدم عليه السلام؟!..
إن إيطاليا قد غيرت لغتها ودينها.. وكذلك صنعت فرنسا.. وألمانيا.. وإسبانيا.. وهولندا.. وبلجيكا.. وكذلك الشعوب في أمريكا الشمالية والجنوبية.. وفي آسيا وإفريقيا ـ .. فهل يجوز لأقلية ـ أو حتى أغلبية ـ في شعب من هذه الشعوب أن تدعو للانقلاب على الواقع والهوية والذاتية اللغوية والقومية والحضارية، وتطلب الهجرة إلى مكونات التاريخ السحيق؟!
إن فارقًا كبيرًا بين الدراسات الأكاديمية المتخصصة للغات القديمة.. لأسباب تاريخية ومعرفية ـ وبين الدعوة إلى الانقلاب على الحاضر ـ الذي غدى هوية.. وقومية.. حضارة.. وثقافة ـ والهجرة إلى "القديم"، الذي غيرته وتجاوزته كل هذه الشعوب.
ـ ثم.. هل صحيح ما قاله الأنبا توماس ـ في محاضرته ـ :
"إن مصر كانت تدعى دائمًا "إجيبتوس"؟.. وأن العرب لم يحسنوا نطق اسمها، فسموها "إجيبت" أي قبط؟!"
ـ إن هذا الذي قاله الأنبا توماس هو عين الجهل والكذب.. فمصر كان اسمها "مصر" دائمًا.. هكذا جاء اسمها في العهد القديم، وفي العهد الجديد، وفي القرآن الكريم ـ قبل الفتح الإسلامي لمصر.. بل وقبل الاحتلال الإغريقي لها ـ في القرن الرابع قبل الميلاد ـ ..
ولقد ذُكرت باسمها ـ مصر ـ في كتاب يوحنا النقيوسي ـ وهو شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر ـ وفي كتاب (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم (257هـ 870م).. وكذلك في كل كتب التاريخ العربية والإسلامية، التي أفردت بابًا ثابتًا لـ "فضائل مصر" خصّت به كنانة الله في أرضه.
وإذا جاز الأنبا توماس أن يجهل كتب التاريخ المصري ـ وهذا غير جائز ـ فكيف تأتى له أن يجهل كتابه المقدس ـ بعهديه القديم والجديد ـ ؟!
لقد ورد اسم مصر، ومصرايم، ومصري، ومصريات، ومصرية، ومصريون، ومصريين، في الكتب المقدسة عند هذا الأسقف ـ العهدين القديم والجديد ـ أكثر من سبعمائة مرة!(11)
ـ كذلك، قال الأنبا توماس ـ عضو المجمع المقدس.. وأسقف القوصية ـ في محاضرته:
"لن أقبل أن أكون عربيًا.. فأنا لست عربيًا عرقًا.. وإذا توجهت إلى قبطي وقلت له: إنه عربي، فإن هذا تعتبر إهانة"!!(12)
ـ وهذا فكر عنصري، يتحدث عن العرق ـ حديث الفاشية والنازية ـ والسؤال: هل هذا الأنبا مسيحي؟!.. وهل لفكره هذا أدنى علاقة بالمسيحية؟!.. أم أن النزعة العنصرية قد قلبت حتى المسيحية عند هذه الشرذمة الطائفية الانعزالية؟!..
إنه يتناسى أن الحديث عن "النقاء العرقي" لأي جماعة بشرية هو محض خلافة ـ ناهيك عن تناقضه مع كل ألوان الإيمان الديني ـ سماويًا كان أم وضعيًا هذا الإيمان ـ ..
كما يتجاهل ـ هذا الأنبا ـ أن مصر حكمها الإغريق والرومان والبيزنطيون عشرة قرون، اختلطت فيها الدماء والأنساب والأعراق والسلالات.. ولو قرأ هذا الأنبا تاريخ الحملة الفرنسية، والغرام الذي قام بين المعلم يعقوب حنا وبين الجنرال "ديزيه".. و"الانفتاح" الذي تحدث عنه الجبرتي بين نساء بعض الطوائف وبين جنود الحملة الفرنسية!.. لربما انصرف عن هذا الحديث عن النقاء العرقي!..(13)
ثم.. هل المسلمون المصريون وافدون على مصر من شبه الجزيرة العربية ـ من نسل عدنان وقحطان؟!

إن الدراسة "الديموجرافية" ـ التي صدرت عن المعهد الوطني للدراسات الديموجرافية بباريس ـ تؤكد أن سكان شبه الجزيرة العربية إبان الفتح الإسلامي لم يتعدوا المليون.. وأن سكان الدولة التي أسسها الفتح الإسلامي ـ في مصر والشام والعراق وفارس ـ قد بلغوا 29.000.000 ـ وإذا أضيف إليهم سكان شمال إفريقيا بلغ سكان تلك الدولة ـ يؤمئذ ـ نحو 40.000.000 ـ ومن ثم فلو هاجر كل عرب شبه الجزيرة ـ المليون ـ لما غيروا من التركيبة الديموجرافية للبلاد التي فتحها المسلمون!(14)

إذن.. فالعرب في مصر هم المصريون الذين تعربوا لغويًا.. وليسوا وافدين من خارج مصر.. وكذلك حال العرب في كل البلاد التي اختار أهلها التعريب اللغوي والثقافي والحضاري..

ولو قرأ ـ هذا الأنبا ـ ما كتبه الأسقف يوحنا النقيوسي لعلم أن أكثر من نصف الشعب المصري ـ عند الفتح ـ قد بادر إلى الدخول في الإسلام قبل تمام الفتح وقبل دخول عمرو بن العاص (50ق.هـ ـ 43هـ ـ 574 ـ 664م) إلى الإسكندرية.. فالنصارى الموحدون ـ أتباع آريوس (265 ـ 336م) الذين كانوا يؤمنون ـ كما يقول يوحنا النقيوسي ـ "إن المسيح مخلوق".. وكذلك المصريون الذين كانوا على الديانة الوثنية القديمة.. كل هؤلاء المصريين دخلوا الإسلام.. والنقيوسي يوجه إليهم الانتقادات، ويصب عليهم اللعنات!..

فالمصريون المسلمون هم ـ كالذين ظلوا على نصرانيتهم ـ أحفاد الفراعنة.. والجميع قد تعرب لغة وثقافة بعد ذلك.. وبالتدرج..

وإذا كانت المسيحية ترفض التمييز بين الناس على أساس العرق والدم.. فإن الإسلام قد بلغ القمة في ذلك، عندما أكد أن الناس جميعًا قد خلقوا من نفس واحدة.. وأن البشر قاطبة مرجعهم لآدم ـ عليه السلام ـ.. كما أكد رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن دعوى الجنس والعرق هي دعوى الجاهلية.. وأنها مفتنة..

وأن العروبة ليست عرقًا وإنما هي اللسان: "ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي" ـ (15)

ـ كما يقول هذا الأسقف:

"لقد قام بعض الناس، لأسباب معينة ـ الضرائب.. أو الضغوط .. أو الطموحات ـ بالتحول إلى الإسلام"

ـ وهو ـ بهذا القول ـ يتجاهل حقائق التاريخ ـ وهي صلبة عنيدة! ـ ..

فمصر عند الفتح الإسلامي ـ الذي حررها وحرر نصرانيتها من القهر الروماني والبيزنطي ـ لم تكن كلها مسيحية أرثوذكسية.. وإنما كانت خارطتها الدينية تشمل خمس ديانات:

1ـ اليهودية.

2ـ النصرانية الآريوسية الموحدة، والتي تقول عن المسيح ـ عليه السلام ـ إنه "مخلوق" ـ كما نص على ذلك يوحنا النقيوسي في تاريخه ـ ..

3ـ والديانة اليونانية القديمة ـ الوثنية.. وفلسفتها ـ .

4ـ والمسيحية الكاثوليكية الرومانية ـ مذهب المستعمرين البيزنطيين ـ.

5ـ والمسيحية الأرثوذكسية ـ التي كانت محظورة، بلا شرعية، ولا كنائس ولا أديرة ـ حتى حررها الفتح الإسلامي.. وحرر بطركها بنيامين (39هـ 659م) وحرر كنائسها وأديرتها..

وإذا كان المسيحيون الكاثوليك قد رحلوا ـ بعد الفتح ـ مع الجيش البيزنطي.. وإذا كان اليهود المصريون قد ظلوا ـ في جملتهم ـ على يهوديتهم.. فإن النصارى الأريوسيين ـ الموحدين ـ .. وكذلك المصريون الوثنيون ـ الذين عانوا من اضطهاد النصارى عليهم ـ قد دخلوا الإسلام بمجرد بدء الفتح الإسلامي.. وحتى قبل فتح المسلمين للإسكندرية..

ويؤكد النقيوسي هذه الحقيقة ـ حقيقة أن الشعب المصري ـ لم يكن كله أرثوذكسيًا، عندما يشير إلى الصراعات بين المكونات الدينية لهذا الشعب، قبل الفتح وأثناءه ـ الصراعات بين اليهود والنصارى.. ومناصرة اليهود للفتح الإسلامي.. والصراعات الأرثوذكسية الوثنية.. والصراعات العقدية بين أهل الوجه البحري.. ومحاربة أهل مصر لأهل الوجه البحري.. كما يتحدث عن انضمام الوثنيين ـ الذين "كانوا يكرهون المسيحيين" ـ إلى الجيش الإسلامي، والمحاربة في صفوفه (16)

ويصادق العلامة سير توماس أرنولد (1864 ـ 1930م) على شهادة شاهد العيان الأسقف يوحنا النقيوسي، فيقول:

"وليس هناك شاهد من الشواهد على أن تحول القبط عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط ـ (أي المصريين) ـ إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حيث كانت الإسكندرية ـ حاضرة مصر يومئذ ـ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة"(17)

* هوامش:

1- مجلة (الهلال) عدد إبريل سنة 1939م.
2- صحيفة (الوفد) عدد 1993/1/21م.
3- (استطلاع الرأي العام في مصر حول تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على جرائم الحدود) ص84 ـ المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ طبعة القاهرة سنة 1985م.
4- غريغريوس ـ مقال عنوانه "اللغة القبطية والألحان القبطية" ـ صحيفة (وطني) في 2000/7/30م.
5- صحيفة (الدستور) في 2008/7/2م.
6- المرجع السابق. نفس التاريخ.
7- صحيفة (المصري اليوم) في 2007/1/19م.
8- صحيفة (المصري اليوم) في 2008/8/25م. ـ (وفي نفس التاريخ) ـ أول توت سنة 1726ق ـ 11 سبتمبر سنة 2008م ـ عقدت الكنيسة "مؤتمر القبطيات" ـ الذي شاركت فيه أبحاث إسرائيلية ـ ومنعت الإعلاميين من حضور جلسات المؤتمر ومناقشاته، "لأن المناقشات الدائرة بداخل المؤتمر يمكن أن يقال فيها أشياء تفسر إعلاميًا بشكل طائفي"؟!! ـ صحيفة (المصري اليوم) في 18 سبتمبر سنة 2008م ـ.
9- صحيفة (الدستور) و(المصري اليوم) و(البديل) ـ في 2008/7/20م ـ نقلاً عن وكالة "أمريكا إن أربيك". وانظر ـ كذلك ـ ترجمة المحاضرة ـ في (الدستور) في 2008/8/13م ـ وأيضًا ترجمة محمود الفرعوني لهذه المحاضرة على موقع "مصريون ضد التمييز" على شبكة المعلومات العالمية.
10 ـ (الموسوعة الأثرية العالمية) إشراف: ليونارد كوتريل ـ ترجمة: د. محمد عبد القادر محمد، د. زكي اسكندر. مراجعة: د. عبد المنعم أبو بكر ـ طبعة القاهرة سنة 1977م. وانظر ـ كذلك ـ: د. أحمد عثمان ـ مجلة (الهلال) عدد يونيو 1995م.
11- انظر فهرس الأعلام في (فهرس الكتاب المقدس) ص 676 و677 طبعة بيروت سنة 2005م.
12- ولقد أيد الأنبا مرقس ـ "وزير إعلام الكنيسة" ـ وعضو المجمع المقدس الأنبا توماس في نفي عروبة المصريين، وقال:
"نحن بالفعل لسنا عربًا، ولكننا مصريون" ـ فانطلق من المفاهيم العرقية للعروبة والمصرية ـ انظر صحيفة (المصري اليوم) في 2008/9/21م.
13 ـ في دراسة ـ للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ عن الأصول العرقية للشعب المصري ـ تقول هذه الدراسة: إن 6% من المصريين عرب جاءوا مع الفتح و2% قبائل بربرية جاءت مع الفاطميين و2% بدو من سكان البلاد الأصليين و2% بوهيميون و88% لعائلات مسيحية تحول 90% منهم إلى الإسلام ـ انظر" د. كامل عبد الفتاح بحيري (التطور الفكري لدى جماعات العنف الدينية في مصر) ص 230 طبعة شبين الكوم ـ سنة 2008م.
14- فيليب فارج، يوسف كرباج (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ترجمة: بشير السباعي. طبعة دار سينا ـ القاهرة سنة 1994م.
15 ـ رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه.
16- يوحنا النقيوسي (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص 125و129 و206- 209 و223 ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبد الجليل ـ طبعة القاهرة سنة 2000م.
17- توماس أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص123 و124 ـ ترجمة: د. حسين إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي ـ طبعة القاهرة سنة 1970م. ـ (ويؤكد "بتلر" على هذه الحقيقة ـ حقيقة أن النصارى المصريين الموحدين وجدوا في الإسلام النصرانية الحقيقية ـ فيقول: "لقد وجدوا في الإسلام المسيحية الحقة التي بشر بها المسيح والحواريون، ومن ثم لم يحسوا أنهم يخونون المسيح باعتناقهم الإسلام" (فتح العرب لمصر) ص387 ـ ترجمة: محمد فريد أبو حديد ـ طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة 1999م.

11- حقيقة إسلام الشعب المصري

هذا التنوع في الخريطة الدينية لمصر - عند الفتح - والذي يجعل الأرثوذكس - الذين كانوا مضطهدين دينيًا - يمثلون أقل من نصف تعداد الشعب المصري يومئذ - هذا التنوع الديني هو الذي يفسر الحقيقة البالغة الأهمية التي تقول:
إن الدولة الإسلامية - التي امتدت من المغرب إلى فارس - والتي ضمت قرابة الأربعين مليونًا من السكان - قد ظلت نسبة المسلمين فيها بعد قرن من الفتح الإسلامي عند حدود 20% من السكان.. اللهم إلا مصر، التي كانت أسرع البلاد دخولاً في الإسلام، لأن أكثر من نصف سكانها - النصارى الموحدون.. والوثنيون - قد اعتنق الإسلام مع بداية الفتح الإسلامي.. بينما ظل الأرثوذكس والأقلية اليهودية على دياناتهم..
لقد كان تعداد مصر - عند الفتح - (سنة 20هـ - سنة 641م) 2.500.000 نسمة.
وفي نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان (20ق.هـ - 60هـ - 603 - 680م) - أي بعد نحو نصف قرن من الفتح الإسلامي - كان قرابة نصف المصريين على نصرانيتهم - وهم الأرثوذكس الذين تمرسوا في الصمود على عقيدتهم إبان الاضطهاد الروماني.. والذين أتاح لهم الفتح الإسلامي حرية دينية لم ينعموا بها من قبل - .
وفي نهاية عهد هارون الرشيد (149 - 193هـ - 766 - 809م) - أي بعد مرور قرابة القرنين من الزمان على تاريخ الفتح الإسلامي - كان تعداد غير المسلمين بمصر - نصارى ويهود - 650.000 نسمة - أي نحو ربع السكان، البالغ عددهم يومئذ 2.671.000 نسمة - أي أن قطاعات من النصارى الأرثوذكس - بعد التعرف على الإسلام - قد بدأوا يتحولون إليه..
وحتى القرن التاسع الميلادي - أي بعد قرنين ونصف من الفتح الإسلامي لمصر - كانت نسبة غير المسلمين في سكانها - من النصارى واليهود - 20" من هؤلاء السكان (1)
تلك هي حقائق التحولات الدينية التي جعلت أغلبية الشعب المصري تعتنق الإسلام منذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامي.. والتي تجعل حديث الأنبا توماس عن "الضرائب.. والضغوط.. والطموحات" التي كانت سببًا في إسلام المصريين حديث "خرافة.. جاهلة" و"جهالة.. خرافية"..
فشهادة العلامة سير توماس أرنولد تقول:
"إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة"(2)
وشهادة المستشرق الألماني الحجة آدم متز (1869 - 1617م) تقول:
"لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام"(3)
وقبلهما كانت شهادة الأسقف يوحنا النقيوسي - الأسقف الأرثوذكسي.. شاهد العيان على الفتح الإسلامي - التي تقول:
"لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية.. ولم يأخذوا شيئًا من مال الكنائس، وحافظوا عليها طوال الأيام، وعشنا في سلام"(4)
تلك هي حقيقة إسلام الشعب المصري.. وسبقه وتسابقه إلى الإسلام..
وحتى الأرثوذكس - الذين ينتمي إليهم الأنبا توماس وأمثاله - فإن من الإهانة لهم أن يقال عنهم إنهم قد تحولوا إلى الإسلام لقاء دراهم معدودة كان المسلم يدفع أضعاف أضعافها في الزكاة.. لقد صمد هؤلاء الأرثوذكس قرونًا، وتمسكوا بعقيدتهم حتى عندما كانوا يقذفون بسببها إلى الأسود والسباع.. الأمر الذي يجعل من الإهانة لهم - ولحقائق التاريخ - أن يقال إنهم قد تركوا عقيدتهم بسبب الضرائب أو الضغوط أو الطموحات!..
ولكنه التعصب الأعمى الذي يقود أصحابه إلى الإساءة حتى إلى الذات.. أو الحب الجاهلي.. حب الدُّبة التي قتلت صاحبها من فرط الغرام!..
لقد أرجع العلماء واللاهوتيون الأوروبيون الكبار - ومنهم العلامة "كيتاني - ليون Caetani (1896 - 1926م) تحول نصارى الشرق نحو الإسلام إلى:
"وضوح التوحيد الإسلامي وبساطته وعمقه ونقائه، عندما قورن بالسفسطة المذهبية والتعقيدات العويصة التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي، الأمر الذي أدى إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلت أنباء الوحي الإسلامي من الصحراء، لم تعد المسيحية الشرقية، التي اختلطت بالغسن والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه

الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد.. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي العرب.."(5)
تلك هي حقائق التاريخ.. وشهادات العلم والعلماء ـ من المسيحيين وليس من المسلمين! ـ ..
ـ كما يقول هذا الأسقف ـ في تعليل أسباب التوتر الطائفي في مصر ـ :
"إن الأصولية قد بدأت في مصر منذ السبعينيات. والقادة الآن هم نتاج هذا الاتجاه"
ـ ونحن نسأل:
أيهما أسبق، ما يسمى بأصولية السبعينيات؟.. أم الطائفية العنصرية الانعزالية، التي بدأت منذ الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م؟.. ثم برزت ـ في ظل غواية الاستعمار الإنجليزي ـ بالمؤتمر القبطي سنة 1911م؟.. وجماعة الأمة القبطية سنة 1952م؟.. ومسلسل الفتنة الطائفية والصدام مع الدولة، الذي قادته الكنيسة منذ 14 نوفمبر سنة 1971م؟!..
إننا أمام تاريخ قديم لهذه النزعة الطائفية العنصرية الانعزالية، التي افتعلت "مشكلة قومية للأقباط"، لتفتيت مصر، والانقلاب على ثوابت الهوية والحضارة والتاريخ..
ولا علاقة لشيء من ذلك بما يسمى بالأصولية ـ التي يحرم أهلها ـ في مصر ـ من أبسط الحقوق والحريات! ـ ..
ثم.. أليست الأرثوذكسية هي قمة الأصولية ـ بالمعنى السلبي ـ الذي يتحدث عنه الغربيون والمسيحيون ـ ومنهم الأنبا توماس؟!.. فمن هم ـ بهذا المعنى ـ الأصوليون الحقيقيون؟!..
ـ وبعد كل هذه المغالطات والجهالات يعترف الأنبا توماس ـ في محاضرته ـ :
"بأن عقلية مصر قد تحولت بالكامل إلى عربية وإسلامية.. وإذا تسنى لك زيارة مصر فلا تجد فرقًا بين مسلم ومسيحي، حيث يتقابل الناس ويعاملون بعضهم بالمودة والمحبة في الشارع والمواصلات والمدارس.. لكنك على الجانب الآخر ستجد أشخاصًا آخرين لهم مواقف أخرى"!
ـ إذن.. فالدعوة العنصرية ـ دعوة النكوص إلى ما قبل أربعة عشر قرنًا ـ هي دعوة للخروج على عقلية مصر كلها، وإلى الصدام مع ذاتيتها الكاملة. وهي دعوة تريد شق صف شعب "لا فرق فيه بين مسلم ومسيحي"، لحساب بعض الأشخاص الآخرين!! ـ باعتراف الأنبا توماس! ـ . الحائز على جائزة "مركز الحرية الدينية" الصهيوني ـ بمعهد هديسون ـ اليميني ـ في أمريكا الإمبريالية سنة 1992م؟!..

***

إن العروبة ـ في مصر ـ هي خيار الشعب المصري، بكل دياناته.. ولقد غدت هذه العروبة ثقافة الأمة كلها، والرابطة التي تربط مصر بمحيطها العربي الكبير.. فهي خيار وطني.. ورابط قومي.. ومقوم من مقومات الأمن المصري.
وإن الإسلام ـ في مصر ـ هو خيار ديني لأكثر من 94" من المصريين.. وهو خيار حضاري لجميع المصريين ـ المسيحيين منهم والمسلمين ـ ..
وإذا كانت العروبة والإسلام وافدين على مصر منذ أربعة عشر قرنًا.. فكذلك المسيحية وافدة على مصر.. و"الأقدمية" لن يستفيد منها سوى عبدة العجل أبيس!!
ـ وأخيرًا.. يقول هذا الأسقف ـ في نهاية محاضرته ـ أو "استغاثته الأمريكانية" ـ :
"إنه أمر مقلق أن أعدادًا كبيرة من المسيحيين تترك مصر والشرق الأوسط ككل.. المسيحيون يغادرون هذه المنطقة، وهذه علامة استفهام كبيرة، كما أنها أيضًا نداء للمعونة لمساعدة المسيحيين على البقاء في أوطانهم"!
ـ ونحن نقول: إذا كانت الهجرة المسيحية من الشرق عامة.. حتى في تركيا ـ الأتاتوركية ـ.. ولبنان ـ العلماني ـ .. والقدس وبيت لحم ـ تحت الاحتلال الصهيوني ـ .. والعراق ـ في عهد البعث العلماني وتحت الاحتلال الأمريكي ـ .. وسوريا ـ تحت حكم البعث العلماني ـ ... إذا كانت الهجرة المسيحية عامة في كل هذه البلاد.. والرحيل المسيحي من كل الشرق ظاهرة عامة، رغم انتفاء الأسلمة في هذه البلاد.. فلم لا يبحث الأنبا توماس ـ وأمثاله ـ عن الأسباب الحقيقية لهذه الهجرة وهذا الرحيل؟!..
وهل من أسبابها التغريب الذي يدفع للنزوح إلى "نعيم الغرب"، وخاصة بعد سقوط نماذج التغريب والتحديث على النمط الغربي؟..
وهل من أسبابها الانفصال عن المشكلات الحقيقية للشرق، وعن التحديات التي فرضت على شعوبه؟.
لقد بدأت الهجرة المسيحية ـ من مصر ـ عقب صدور قوانين الإصلاح الزراعي.. وتمصير الشركات الأجنبية.. وقرارات التأميم ـ في خمسينيات وستينيات القرن العشرين ـ لأن الذين هاجروا ورحلوا كانوا مميزين وممتازين من

قبل سلطات الاحتلال الإنجليزي والشركات الأجنبية.. فلم يعجبهم العدل النسبي الذي حققته ثورة يوليو سنة 1952م، والذي مس الاستغلال الإقطاعي والرأسمالي والإداري الذي كان من نصيب الأقلية، وعلى حساب الأغلبية!..
هكذا كانت البدايات.. والأسباب للهجرة والرحيل!..
ثم.. إن الطائفية والانعزالية تجعل من المسيحيين ـ الذين سقطوا في شراكها ـ جاليات أجنبية، تهرب من النضال المفروض على شعوب الشرق إلى الثراء والدعة في الغرب.. ولعل واقع "الرحيل" ـ رحيل المسيحيين عن الشرق ـ وليس عن مصر وحدها ـ يؤكد هذه الحقيقة.. وفي الجدول الآتي فصل الخطاب عن واقع الرحيل المسيحي حتى من البلاد التي ليس فيها أسلمة ولا تعريب:

ـ تركيا: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 2.000.000 في سنة 1920م = 15"
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 80.000 = 1"
ـ إيران: عدد أو نسبة المسيحيين قبل الآن 300.000 في سنة 1979م
عدد أو نسبة المسيحيين الآن 100.000
ـ سوريا: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 33" في سنة 1900م
عدد أو نسبة المسيحيين الآن 10"
ـ لبنان: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 55" في سنة 1932م
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن أقل من 30" مع ملاحظة أن حرب 2006 دفعت مليون للهجرة.
ـ القدس: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 53" في سنة 1922م
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 10.000= 2"
ـ بيت لحم: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 85" في سنة 1948م
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 12"
ـ فلسطين: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 20" في سنة 1948م
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 65.000= 10"
ـ الضفة الغربية: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن (لا يوجد)
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 51.000
ـ غزة: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن (لا يوجد)
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 3.500
ـ العراق: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين قبل الآن 1.250.000 في سنة 1987م = 5"
عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 700.000 في سنة 2003م =3" مع ملاحظة أنه بعد الاحتلال هاجر 350.000 والباقي 350.000 = 1.5"
ـ الأردن: عدد ـ أو نسبة ـ المسيحيين الآن 160.000 = 4"

أما في مصر: فإن نسبة الهجرة بين الشباب المسيحي تزيد عن 70" من عدد المهاجرين ـ مع العلم أن نسبتهم لمجموع السكان هي 5.8".. و95" من تأشيرات "اليانصيب" الأمريكية هي للمسيحيين!..
كما أن إحصاءات سنة 2006م تقول: إن جملة مواليد المسيحيين المصريين ـ في العامة ـ هي 50.000 ومتوسط المتحولين منهم إلى الإسلام ـ سنويًا ـ هو من 40.000 إلى 50.000 (6)
الأمر الذي دفع عددًا من الكتاب والباحثين الأقباط ـ والأجانب ـ إلى الاعتراف ـ ولأول مرة.. وبعد أن كانوا يبالغون في أعدادهم ـ بأنهم يواجهون الانقراض خلال القرن الواحد والعشرين.
ـ لقد كتب الدكتور كمال فريد اسحق ـ أستاذ اللغة القبطية ـ بمعهد الدراسات القبطية ـ بحثًا عن "انقراض المسيحيين المصريين خلال مائة عام" ـ قال فيه:
"إن نسبة المسيحيين المصريين تقل تدريجيًا، وذلك لأسباب ثلاثة:
أولها: الهجرة إلى الخارج.
وثانيها: اعتناق عدد كبير منهم الدين الإسلامي.
وثالثها: أن معدل الإنجاب عند المسيحيين ضعيف، على عكس المسلمين.
وإن هؤلاء المسيحيين ـ لذلك ـ سينقرضون في زمن أقصاه مائة عام"(7)
ـ وكتب الباحث القبطي ـ سامح فوزي.. يقول

"إن تعداد المسيحيين في المنطقة العربية يصل إلى ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر مليونًا.. ويتوقع بعض المراقبين أن يهبط هذا الرقم إلى ستة ملايين نسمة فقط بحلول عام 2020م، نتيجة موجات الهجرة المتوالية للمسيحيين، وهكذا تصبح المنطقة العربية على شفا حالة جديدة يغيب فيها الآخر الديني، ويصبح الإسلام هو الدين الوحيد والمسلمون هم وحدهم أهل هذه البلدان..

وتشير الدراسات إلى أن تعداد المسيحيين في تركيا كان مليوني نسمة سنة 1920م ولقد تناقص الآن إلى بضعة آلاف.. وفي سوريا كان تعداد المسيحيين في بداية القرن العشرين ثلث السكان.. ولقد تناقص الآن إلى أقل من 10".. وفي لبنان كان المسيحيون يشكلون سنة 1932م ما يقرب من 55" من السكان.. ولقد أصبح عددهم الآن يدور حول 30"..

وفي العراق تناقص عدد المسيحيين من 800.000 ـ على عهد صدام حسين ـ إلى بضعة آلاف بعد الاحتلال الأمريكي.. وفي القدس.. قال الأمير الحسن بن طلال: إنه يوجد في "سدني" ـ باستراليا ـ مسيحيون من القدس أكثر من المسيحيين الذين لا يزالون يعيشون في القدس!"

والملاحظ أن كل البلاد التي تحدث سامح فوزي عن رحيل المسيحيين منها، ليس في أي منها أي لون من ألوان "الأسلمة" على الإطلاق!..(8)

ـ أما مجلة "نيوزويك" ـ الأمريكية ـ فلقد نشرت:

"إن الكثير من المسيحيين المصريين يرحلون عن مصر، هناك الآن ما بين 12 و15 مليون مسيحي عربي في الشرق الأوسط، ويمكن لهذا الرقم أن ينخفض إلى ستة ملايين فقط بحلول عام 2025م.

ولقد بدأت دول الشرق الأوسط تشهد تحولاً ملحوظًا من هذه الناحية: ففي سنة 1956م كان المسيحيون اللبنانيون يمثلون 56" من مجموع سكان لبنان، أما الآن فليس هناك أكثر من 30". وقد انخفض عدد المسيحيين في العراق من 1.4 مليون شخص سنة 1987م إلى 600.000 حاليًا. وكانت مدينة بيت لحم مسقط رأس السيد المسيح مدينة 80" من سكانها مسيحيون حين تأسست دولة إسرائيل سنة 1948م، أما الآن فلا يمثل المسيحيون فيها أكثر من 16".

وحسب "دروكر يستيانس" ـ رئيس تحرير "مجلة أمريكا" ـ فإنه في ظل هذا الرحيل الجماعي للمسيحيين العرب يتم فقدان الممارسات والثقافات القديمة. والمسيحيون الشرق أوسطيون في نهاية المطاف يخاطرون بالامتزاج في بحر المسيحية الغربية"!(9)

ونحن نلاحظ ـ مرة ثانية ـ أن البلاد التي تحدثت "نيوزويك" عن "الرحيل الجماعي" للمسيحيين عنها ـ لا علاقة لأي منها بأي لون من ألوان الأسلمة ـ التي تحدث عنها الأنبا توماس، باعتبارها الغول الذي يهدد المسيحية الشرقية، ويدفع المسيحيين الشرقيين إلى الرحيل!..

لكنه التعصب الأعمى، الذي يعمي المصابين به عن اكتشاف وتشخصين حقيقة الأمراض التي منها يعانون!..

هامش :

1- (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص 46و47و25.

2- (الدعوة إلى الإسلام) ص729 و730.

3- (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ 1 ص105 ـ ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ طبعة بيروت سنة 1967م.

4- (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص 201 و220. ود. صبري أبو الخير سليم (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص62 طبعة القاهرة سنة 2001م.

5- (الدعوة إلى الإسلام) ص 89- 91.

6- انظر ـ في هذه الإحصاءات ـ صحيفة (الحياة) ـ لندن ـ دراسة: أحمد دياب ـ بعنوان "هل يخلو الشرق الأوسط من مسيحييه؟" في 2008/6/11م. وانظر ـ كذلك ـ د. رضوان السيد (الحياة) في 2008/3/18م.

7- صحيفة (المصري اليوم) في 2007/5/12م.

8- سامح فوزي ـ صحيفة (وطني) ـ مقال بعنوان "ماذا لو رحل المسيحيون؟" في 2007/5/27م.

9- (نيوزويك) ـ الطبعة العربية ـ في 2008/1/15م.

12- والانقلاب حتى على المسيحية.. والرهبنة!

إذن.. فنحن ـ بعد هذه الإشارات إلى:
ـ مخطط الفتنة الطائفية.. وجذورها منذ مطلع العصر الحديث.. وفي ظل الغواية الاستعمارية..
ـ وبعض وقائع أحداث تلك الفتنة.. في طورها الذي صاحب قيام الإحياء اليهودي الصهيوني..
ـ والفكر العنصري المنظر لهذه الفتنة ـ
واجدون أنفسنا ـ بعد هذه الإشارات ـ أمام انقلاب، ليس على هوية بلادنا ـ الوطنية.. والقومية.. والحضارية ـ فحسب.. بل أمام انقلاب طال ـ كذلك ـ طبيعة المسيحية ذاتها، وطبيعة الرسالة التاريخية لكنيستها ـ كما عرفتها الدنيا وتعارفت عليها عبر التاريخ..
ولقد سبقت إشارتنا إلى دور مجلس الكنائس العالمي ـ الذي أقامته المخابرات المركزية الأمريكية ـ عقب الحرب العالمية الثانية ـ في نفس العام الذي أقيم فيه الكيان الصهيوني على أرض فلسطين ـ دوره في إحداث هذا الانقلاب في طبيعة نشاط الكنائس وآفاق رسالتها.. وكيف جعل لهذه الكنائس ـ في بلاد الجنوب.. وخارج المعسكر الإمبريالي الغربي ـ مهام دنيوية ـ سياسية والاجتماعية واقتصادية ـ ليستخدمها في تحقيق مقاصد أمريكا الإمبريالية في الحرب الباردة وفي السيطرة على العالم، ووراثة الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة..
فهذه الديان المسيحية، التي تدع ما لقيصر لقيصر، وتكتفي بما لله.. والتي جعلت رسالة كنيستها "خلاص الروح ومملكة السماء" ـ لأن مملكة المسيح ـ عليه السلام ـ كما جاء في الإنجيل ـ ليست في هذا العالم ـ .. هذه المسيحية قد انقلبت ـ في عرف هذا التيار الطائفي العنصري الانعزالي ـ إلى اغتصاب ما لقيصر.. وإلى جعل الكنيسة حزبًا سياسيًا، ودولة داخل الدولة ـ وأحيانًا فوق الدولة!.. ومتصادمة مع الدولة! ـ الأمر الذي أدى إلى المواجهات المتوترة بين هذه الكنيسة وبين الدولة، لأول مرة في تاريخ علاقة هذه الكنيسة بالدولة.
ولقد صدرت أحكام قضائية ـ من أرفع مستويات القضاء المصري ـ مجلس الدولة ـ تدين هذا الانقلاب الذي أحدثته هذه الفتنة الطائفية في رسالة الكنيسة ومسيحيتها.. فجاء في حيثيات الحكم بالقضية رقم 934 لسنة 36 قضائية ـ بتاريخ 1983/4/12:-
".. وقد صور الطموح السياسي لقيادة الكنيسة أن تقيم الكنيسة من نفسها دولة داخل الدولة، تستأثر بأمور المسيحيين الدنيوية، وخرجوا بالكنيسة عن دورها السامي الذي حدده لها المسيح عليه السلام في قوله: ردوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله..
كما سعى رأس الكنيسة إلى إثارة شعور الأقباط لحشدهم حوله، واستغل ذلك في الضغط على سلطات الدولة..
واستعدى الرأي العام العالمي على الحكومة المصرية، وأضر بسمعة البلاد.. وليس من شك في أن هذه التصرفات كلها تنطوي على تحد لسلطة الدولة"!(1)
هكذا صدر حكم القضاء ـ وهو عنوان الحقيقة ـ بإدانة هذا الانقلاب الذي أحدثته الطائفية العنصرية الانعزالية في طبيعة المسيحية ورسالة كنيستها..
ـ ولقد تبع هذا الانقلاب ـ الذي سجلته حيثيات حكم مجلس الدولة ـ على رسالة الكنيسة ـ ومن ثم التي مثلت، دينيًا وتاريخيًا: "الموت عن هذا العالم"، حيث يغير الراهب اسمه، ويتخلى عن أهله وذويه وكل العلائق التي تربطه بالدنيا، ليستخلص روحه وجسده للتوحد مع المجاهدات الروحية، والفناء فيما وراء هذا العالم.. يصنع ذلك في دير أو مغارة ـ "قلاية ـ صومعة" ـ منقطعة الصلات بالدنيا وشواغلها..
حدث الانقلاب على هذه الطبيعة ـ الدينية.. التاريخية ـ المستقرة لمعنى "الرهبنة" ووظيفتها في المسيحية.. فتحولت الأديرة المصرية إلى مؤسسات إنتاج إقطاعية.. وتحول الرهبان إلى السعي ـ صباح مساء ـ للاستيلاء على الأراضي المجاورة للأديرة وضمها إلى إقطاعيات هذه الأديرة.. بل وخوض النزاعات المسلحة لتحقيق هذه المقاصد الإقطاعية!!..
ويكفي للتمثيل على هذا الانقلاب ـ في معنى الرهبنة ورسالتها ـ وفي وظيفة الرهبان ـ أن نشير إلى النزاع المسلح الذي تفجر في 29 مايو سنة 2008م بين رهبان "دير أبو فانا" ـ بملوي ـ محافظة المنيا ـ بصعيد مصر ـ وبين أهالي "قصر هور" بسبب الاستيلاء على المساحات الشاسعة من الأرض المحيطة بالدير.. وكيف أن الرهبان كانوا يذهبون فيقيمون "قلاية" ـ صومعة ـ على بعد أكثر من ثلاثة كيلومترات من الدير، ثم يعمدون ـ بعد ذلك ـ لضم "القلاية" والمساحات الفاصلة بينها وبين الدير إلى إقطاعية هذا الدير!!.. الأمر الذي فجر نزاعًا مسلحًا له ضحاياه.. وتحركت

له مظاهرات أقباط المهجر، متحالفة مع الدوائر الصهيونية، ودوائر اليمين الديني الأمريكي، والمسيحية الصهيونية، وساعية لاستصدار قرار من الكونجرس الأمريكية بإدانة مصر، وفرض العقوبات الأمريكية عليها!!..
كل ذلك، دفاعًا عن الانقلاب الذي حدث في معنى الرهبنة ورسالتها، وفي وظيفة الرهبان، الذين تركوا مملكة السماء، وحمل بعضهم السلاح للاستيلاء على الأراضي وضمها إلى إقطاعيات الدير!..
وحتى يعرف القارئ ـ المسيحي قبل المسلم ـ عمق هذا الانقلاب الذي حدث للرهبنة، وفيها، وعليها، يكفي أن نقدم سطورًا نشرتها صحيفة "وطني" ـ الأرثوذكسية ـ عن رهبنة الراهب "أبو فانا" ـ صاحب الدير الذي تفجرت فيه أحداث مايو سنة 2008م ـ ليرى القارئ ـ المسيحي قبل المسلم ـ الفارق بين مسيحية ورهبنة الراهب "أبو فانا" وبين مسيحية ورهبنة الرهبان الذين فجروا هذه الأحداث في الدير الذي يحمل اسمه..
لقد تحدثت صحيفة "وطني" عن الراهب ـ القديس ـ "أبو فانا" (355 ـ 415م) وكيف:
"أضنى جسده بالصوم الكثير، وتدرج في صوم الانقطاع حتى صار يصوم في الشتاء يومين يومين، وفي الصيف كان يتناول القليل من الخبز والماء والبلح الجاف عشية كل يوم. وكان دائم الوقوف على رجليه حتى تورمت قدماه، والتصق جسده بعظمه من شدة النسك فصار مثل خشبة محروقة. وكان كلما غلبه النعاس ينام وهو يستند متكئًا بصدره على جدار أقامه خصيصًا لذلك، أو يجلس على الأرض ويستند إلى الحائط، أو يضع رأسه على درجة.
فظل هكذا ثمانية عشر عامًا حتى اعتراه المرض من شدة النسك، فأتاه السيد المسيح ليدعوه ليتم جهاده المثمر، ويكشف له يوم نياحته ـ (موته) ـ فأحضر تلاميذه، وأخبرهم، وأشار بعمل قداس، وظل واقفًا طوال القداس والدود يتساقط من قدميه.. ثم تنيح ـ (مات) ـ بسلام..
ودفنوه بإكرام عظيم في ديره الموجود بالجبل الغربي ـ قصر هور ـ ملوي.."(2)

***

هكذا كانت المسيحية، عبر تاريخها، وهكذا كانت "الرهبنة" والرهبانية والرهبان ـ عبر التاريخ ـ ..
وهكذا تم الانقلاب على كل ذلك، تحت قيادة تيار الطائفية العنصرية الانعزالية، في الواقع المعاصر الذي نعيش فيه!..
ولقد تمت كل هذه الانقلابات في ظل المخطط الإمبريالي الأمريكي لتفجير وتفتيت مصر ووطن العروبة وعالم الإسلام، من خلال اللعب "بورقة الأقليات"!.

---

* هوامش:

1ـ انظر نص حيثيات هذا الحكم في: د. محمد مورو (يا أقباط مصر انتهبوا) ص220 ـ 255 طبعة القاهرة سنة 1998م. وفي كتابنا (في المسألة القبطية حقائق وأوهام) ص117 ـ 147 طبعة القاهرة سنة 2003م.
2ـ صحيفة (وطني) في 2008/8/3م.

13- أصوات العقلاء.. والحكماء

وإذا كانت هذه إشارات ـ مجرد إشارات ـ لمعالم هذا الانقلاب الطائفي العنصري الانعزالي، الذي تبلور تياره في أوساط النخبة الأرثوذكسية عقب الحرب العالمية الثانية.. في ظلال ـ وبالموازاة مع ـ نزعات الطائفية والعنصرية التي انتعشت بعد النجاح في إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين.. فإننا لا نبالغ إذا قلنا: إننا بإزاء انقلاب طائفي.. تقوده الكنيسة الأرثوذكسية على مقومات الهوية الوطنية والقومية والحضارية لمصر.. وعلى تاريخها.. ورسالتها التي حملتها وتحملها إلى العالمين.. وأمام "حلم مجنون" بإعادة عقارب الساعة إلى ما قبل أربعة عشر قرنًا.. وذلك طمعًا في تكرار ما حدث على أرض فلسطين بأرض الكنانة!..
إننا أمام أقلية دينية، لا تتجاوز نسبتها 5.8% من السكان.. يقودها تيار طائفي عنصري انعزالي يسعى إلى إدارة عقارب التاريخ والجغرافيا والهوية إلى الوراء، في انسجام تام مع مخطط التفتيت والفوضى الخلاقة الذي ترعاه الإمبريالية الأمريكية والعنصرية الصهيونية والصليبية العالمية.. غير عابئ بالأغلبية المسلمة.. بل ولا حتى بقطاعات من عقلاء المسيحيين المصريين الذين يرفضون الانخراط في هذا الاتجاه..

***

ـ وكما سلطنا الأضواء على المخطط "الإمبريالي.. الصليبي.. الصهيوني" لإعادة تفتيت وشرذمة العالم الإسلامي ـ بما فيه مصر.. بل وخاصة مصر ـ بواسطة الأقليات الدينية والقومية والمذهبية ـ .. وسلطنا الضوء ـ كذلك ـ على الشرائح التي سقطت في مستنقع الخيانة الذي رسمه هذا المخطط.. فإننا ـ إعمالا للمنهج القرآني:{ليسو سواء} ـ قد سلطنا الضوء على مواقف العقل والحكمة الوطنية التي عبرت عنها أصوات رموز دينية ومدنية بين هذه الأقليات.. أولئك الذين أعلنوا أن هذه الأقليات هي جزء أصيل من النسيج الوطني والقومي والحضاري للأمة العربية الإسلامية.. وأن مشكلاتهم هي مشكلات الأمة.. وطموحاتهم هي طموحات الأمة.. ومصيرهم لا ينفصل عن مصير الأمة.. وأمنهم وأمانهم في مشروع الأمة الحضاري والنهضوي..
نعم.. لقد سلطنا الأضواء على مواقف هؤلاء العقلاء الحكماء.. الذين قالوا ـ بلسان الأنبا موسى ـ أسقف الشباب بالكنيسة الأرثوذكسية ـ :
"نحن، كأقباط، لا نشعر أننا أقلية، لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقي "إثني" لأننا مصريون، وأتجاسر وأقول: كلنا أقباط، بمعنى أنه يجري فينا دم واحد من أيام الفراعنة، ووحدة المسألة العرقية تجعلنا متحدين مهما اختلفنا.
هناك طبعًا التمايز الديني، لكن يظل الأقوى والأوضح الوحدة العرقية. ولا نشعر، نحن الأقباط، بشعور الأقلية البغيض الذي يعاني منه غيرنا.. نحن أقلية عددية فقط، ولكن هذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شرخًا بيننا وبين إخواننا المسلمين.
من جهة الهوية العربية، نحن مصريون عرقا، لكن الثقافة الإسلامية هي السائدة الآن، كانت الثقافة القبطية هي السائدة قبل دخول الإسلام، وأي قبطي يحمل في كثير من حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة، بل هي جزء من مكوناته.
نحن نحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية، ومقتنعون بالطبع بأن فكرة العروبة فكرة سياسية واقتصادية وثقافية، بالإضافة لوحدة المصير المشترك.. والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تناصرية.. هذه دوائر متداخلة..
ومصر دائما دولة مسلمة ومتدينة، ولكن بدون تطرف، ولو عشنا، كمسلمين وأقباط، وفي إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق.
نحن، في مصر، نسيج واحد، وسعداء بذلك، وهذه حماية استراتيجية لنا كأقباط، ونحن نرفض المسيحية السياسية، لأن المسيح قال:"مملكتي ليست بالعالم".. ولو حدثت المسيحية السياسية تصبح انتكاسة على المسيحية..
وتقسيم مصر فكرة مستحيلة، وغير مسيحية، ولو فكرنا في ذلك معناه أننا نجهز أنفسنا للإبادة.. إنها فكرة غبية.. فكرة صهيونية من أجل تفتيت مصر.."(1)
هكذا تحدث صوت العقل والحكمة، على لسان الأنبا موسى، من داخل الكنيسة الأرثوذكسية.

ـ ومن داخل الكنيسة الكاثوليكية.. تحدث صوت العقل والحكمة، على لسان الأنبا يوحنا قلته، نائب البطرك الكاثوليكي في مصر.. فقال:
"أوافق تمامًا على أن أكون مصريًا.. مسيحيًا، تحت حضارة إسلامية.
أنا مسلم ثقافة مائة في المائة..
أنا عضو في الحضارة الإسلامية كما تعلمتها في الجامعة المصرية.. تعلمت أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سمح لمسيحيي اليمن أن يصلوا صلاة الفصح في مسجد المدينة.. فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة.. التي تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحي.. والتي تعلي من قيمة الإنسان كخليفة عن الله في الأرض.. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة..
وإنه ليشرفني، وأفخر أنني مسيحي عربي، أعيش في حضارة إسلامية.. في بلد إسلامي.. وأساهم وأبني، مع جميع المواطنين، هذه الحضارة الرائعة.."(2)

ـ وغير أصوات العقل والحكمة عند بعض رجال الكهنوت.. وجدنا هذه المواقف العاقلة والحكيمة بين عقلاء المسيحيين العلمانيين ـ أي غير الأكليروس..
فالدكتور غالي شكري (1935 ـ 1998م) يكتب فيقول:
"إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسي لأقباط مصر.. وعلى الشباب القبطي أن يدرك جيدًا أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هي حضارتنا الأساسية.. إنها الانتماء الأساسي لكافة المواطنين.
صحيح أن لدينا حضارات عديدة، من الفرعونية إلى اليوم، ولكن الحضارة الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هي الانتماء الأساسي، والذي بدونه يصبح المواطن في ضياع..
إننا ننتمي ـ كعرب من مصر ـ إلى الإسلام الحضاري والثقافي، وبدون هذا الانتماء نصبح في ضياع مطلق.. وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقًا مع العقيدة الدينية. بالعكس ـ لماذا؟ لأن الإسلام وحد العرب، وكان عاملاً توحيديًا للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد.."(3)

ـ وفي نفس الموقف العاقل والحكيم ـ والعميق ـ نجده عند المفكر الحضاري الدكتور أنور عبد الملك.. الذي كتب يقول:
"إن أي إنسان عاقل يدرك أن مصر هي أقدم أمة وحضارة في التاريخ قاطبة.
ومنذ الفتح العربي الإسلامي دخلنا بالتدريج في إطار دائرة أسميناها ـ منذ خمسين عامًا ـ الدائرة العربية، ولكنها في الواقع هي دائرة الحضارة الإسلامية، التي تتمركز حول مبدأ واحد هو "التوحيد" الذي يتفق بشكل مطلق مع خصوصية مصر. فالحياة العامة في مصر بها قبول بالسليقة للتوحيد، ناتج من وحدة الأمة المصرية منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، وبالتالي فالإطار الحضاري للإسلام يشمل المرحلة القبطية، "أي المسيحية المصرية"، كما أن لغتنا هي العربية، لغة القرآن"(4)

ـ ونفس الموقف العاقل والحكيم ـ والواعي ـ نجده عن المفكر الحضاري والمناضل السياسي الدكتور رؤوف نظمي ـ (محجوب عمر) ـ الذي قال عن المرجعية الإسلامية الواحدة، والموحدة، لكل الأمة:
"الأمة مرجعيتها واحدة، وهي الإسلام، بما له من تراث وعقائد وأصول.. والأساس هو أن يكون للأمة مرجعية واحدة، فإذا كانت الأمة الإسلامية فمرجعيتها الإسلام، وإذا كانت كونفوشيوسية، فمرجعيتها الكونفوشيوسية..
إن أغلبية الأمة مسلمون، والمطلوب هو توجيه الجهود للعمل مع الأغلبية التي لا تزال على مرجعيتها التاريخية، على تراثها الحضاري، وعلى عقيدتها..
نحن لدينا دستور يقول: إن دين الدولة هو الإسلام، وكافة مواد القانون تكون في حدود الشريعة، والمطلوب فقط ترويج هذا الفهم لإطلاق طاقات الإبداع في المشروع الحضاري..
وإذا كانت المرجعية الإسلامية هي مرجعية الجميع، تنتهي المشكلة. فالمطلوب أن يكون مشروعنا حضاريًا، من حضارتنا، وحضارتنا إسلامية، فالمطلوب أن يكون الإسلام هو المرجعية العامة للجميع"(5)

ـ ونفس الموقف العاقل والحكيم نجده واضحًا وحاسمًا عند الكاتب صادق عزيز.. الذي قال:
"إن مصر دولة إسلامية منذ دخلها الإسلام، ويومها كان المسلمون هم الأقلية، وكان الأقباط هم الأغلبية، ومع ذلك كانت إسلامية. بل إن مصر في تاريخها لم تكن دولة "قبطية" حتى من قبل الإسلام، فهي تقع دائمًا تحت الحكم الروماني أو البيزنطي أو المقدوني، أما الحكم القبطي فلم نسمع عنه أبدًا.. وفيما عدا الأحوال الشخصية فإن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتعارض إطلاقًا مع المسيحية، وذلك لعدة أسباب أهمها:

1- أنه إذا كانت الدولة إسلامية، فالقوانين الوضعية يجب أن تكون إسلامية، وعلينا قبول ذلك، بل والترحيب به، عملاً بقول المسيح: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"
2- أن أحكام الشريعة الإسلامية تنطبق في كثير جدًا من الأحوال مع شريعة العهد القديم، وهي ما جاء المسيح لا لينقضها.. بل ليكملها..
3- أن المسيحية لم تأت بأحكام وقوانين وضعية، عملا بقوله - (المسيح) - : "مملكتي ليست في هذا العالم"، ومن ثم ترك للحكام أو لقيصر وضع الأحكام الأرضية، وأمرنا أن نعطي ما للحكام للحكام.."(6)
فمصر دولة إسلامية.. مرجعيتها الإسلام، منذ دخلها الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا.. ولم تكن دولة قبطية حتى قبل دخول الإسلام إليها، لأن المسيحية ليست دولة، ومملكة المسيح ليس في هذا العالم.. والعروبة هي الهوية الثقافية والقومية لمصر..
وليس في مصر مشكلة "عرقية - إثنية"، لأن شعبها نسيج عرقي ووطني واحد: مصريون أسلموا - هم الأغلبية الساحقة - ومصريون ظلوا مسيحيين - وهم الأقلية في الدين فقط.. أي في الاعتقاد، أما في منظومة القيم والأخلاق والثقافة فالجميع مسلمون حضاريًا..
والمسيحية السياسية تعني "تجهيز المسيحيين للإبادة"!..

***

هذا هو موقف العقلاء والحكماء - من المسيحيين المصريين - من رجال الكهنوت ومن العلمانيين..
لكن السؤال - المطروح اليوم - وأمام تصاعد النزعة الطائفية العنصرية الانعزالية التي تقودها الكنيسة - أين موقف هؤلاء العقلاء الحكماء؟!.. ولماذا الصمت على هذا المشروع الطائفي، الذي "يجهز المسيحيين للإبادة" - كما قال الأنبا موسى؟!..
نحن نعلم درجة القمع التي يمارسها الكاهن الأكبر إزاء المعارضين لسلطاته المستبدة.. ونعلم تأثير سلاح "الحرمان الديني" الذي استخدمه ويستخدمه بإسراف غير مسبوق ضد من تحدثه نفسه بالخروج على هذه النزعة الطائفية التي دفع الأقباط في مستنقعها..
لكن.. ومع أخذ كل ذلك في الاعتبار.. فإن القضية قضية وطن وأمة وحضارة ومصير - ولابد من موقف واضح وشجاع ومعلن لإنقاذ الأقباط وكنيستهم من هذا المنزلق الخطير الذي يوشكون على التردي فيه!..

***

---

* هوامش:

1- د. سعد الدين إبراهيم (الملل والنحل والأعراق) ص529 - 534.
2- الأنبا يوحنا قلته: من حوار دار عقب محاضرة لي - في جمهور من النخبة المسيحية، الممثلة لمختلف الطوائف - دعت إليها "اللجنة المصرية للعدالة والسلام" - عنوانها: "أثر البعد الديني في الاشتراك في العمل العام"، بفندق الحرية - بمصر الجديدة - بتاريخ 9 نوفمبر سنة 1991م - انظر كتابنا (الإسلام والسياسة) ص136 طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة 2008م.
3- صحيفة (الوفد) عدد رجب سنة 1413هـ - 21 يناير سنة 1993م.
4- صحيفة (أخبار الأدب) في 2000/4/30م.
5- مجلة (منبر حر) عدد خريف سنة 1989م - ص41و42 - بيروت.
6- جمال بدوي (الفتنة الطائفية: جذورها وأسبابها. دراسة تاريخية ورؤية تحليلية) ص137 - 141 - طبعة القاهرة سنة 1992م.

14- رسالة الأب "متى المسكين"

وإذا كنا قد أشرنا إلى مقتطفات من كتابات العقلاء والحكماء.. الذين دعوا إلى وقوف الكنيسة عند رسالتها الدينية والروحية ـ التاريخية ـ التي عينها لها المسيح ـ عليه السلام ـ.. أي الوقوف عند خلاص الروح وتوبة الخطاة.. فلابد من الإشارة إلى رأس هؤلاء العقلاء الحكماء، أنجب من أفرزه اللاهوت الأرثوذكسي المعاصر: الأب متى المسكين (1919 - 2006م) الذي مثل القيادة الحكيمة للتيار اللاهوتي الداعي إلى وقوف الكنيسة.. عند ما لله ـ وترك ما لقيصر والدولة والمجتمع والسلطان.. والذي كتب في هذا الموضوع الكتب والدراسات والمقالات النفيسة.. والذي تعرض ـ هو وأتباعه ـ للحصار والاضطهاد ـ بل والتكفير والحرمان الديني! ـ من تيار الطائفية العنصرية الذي اختطف الكنيسة الأرثوذكسية منذ سبعينيات القرن العشرين..

وإذا شئنا أن نقدم نماذج من كتابات هذا الحبر العظيم ـ الأب متى المسكين ـ حول الرسالة الحقيقية للكنيسة، فإننا نقدم هذه السطور التي قال فيها:

"إن الخطيئة هي مدخل المسيحية إلى الإنسان.. وإن المسيح يهتم أبدًا كيف يرتب حياة الخاطئ لمّا يتوب، أو يشرّع قوانين مدنية.. المسيح لم يعِد الخطاة التائبين بشيء من مُلك هذا العالم، بل ثبّت قلب التائب نحو مُلك السماء.. ملكوت الله ليس ملكوتًا زمنيًا، فلا تترقب مجيئه عبر الزمان..

لم يجمع السيد قط ولم يخلط أبدًا بين مملكة الله ومملكة هذا الدهر. نقرأ عنه أنه "لما أرادوا أن يختطفوه ويجعلوه ملكًا، أنصرف وحده" ـ يوحنا 6: 15 ـ.

التوبة شغل الكنيسة الشاغل لأنها رسالتها.. فإذا رفعنا المناداة بالتوبة من الكنيسة لا يتبقى لها عمر آخر.. وخارجًا عن التوبة لا يوجد عمل ولا خدمة داخل الكنيسة وخارجها..

ومحاولة الكنيسة الاهتمام بالأمور الدينية باسم المسيح هو بمثابة تنصيب المسيح ملكًا على الأرض. ومحاولة تقوية سلطان الكنيسة الزمني والمطالبة بحقوق للجماعة هو رجعة لإقامة مُلك المسيا كما يحلم به اليهود..

إن أخطر عدو يهدد كيان المسيحية بالانحلال هو أن يهتم الكارزون في الكنيسة بموضوع آخر غير "خطيئة الإنسان" فيتركوا عنهم دعوة المسيح للخطاة التي كانت مهمته الأولى، والعظمى، وينشغلوا بالإنسان من جهة حياته الاجتماعية. هذا ليس خروجًا عن المسيحية فحسب، ولكنه مقاومة..

إن المسيحية تتعرض في هذه الأيام لنفس المحنة ـ (التي تعرضت لها على أيدي الفرنسيين) ـ والكنيسة تواجه نفس الضربة، لأن بعض الكارزين يحاولون الآن الخروج بالمسيحية عن موضوعها، بسبب انعدام قدرتهم على الكرازة بالتوبة لتجديد الإنسان وخلاصه، وإن الخسارة التي ستجنيها الكنيسة من جراء ضم مواضيع جديدة للكرازة سوف تنتهي أخيرًا بانطفاء سراج المناداة بالتوبة لخلاص الخطاة الذي ظل ينير الكنيسة ويضم لها كل يوم الذين يخلصون. الأمر الذي كان يخشاه بولس الرسول، والذي من أجله حارب وحوشًا في أفسس، وجاهد وغلب، ثم تركه وديعة لتلميذه تيمو ثاوس ليحارب حروب الرب من أجله أيضًا، ويسلمه تراثًا أبديًا للكنيسة..

ولكن الكارزين في هذه الأيام فقدوا الطريق الموصل لقلب الإنسان، فأخذوا يدورون حوله إلى ما لا نهاية.

والمفتاح المقدس الذي سلمه الرب للكنيسة ليدخلوا به إلى قلب الخطاة ضاع. والمفتاح كان المناداة بالتوبة..

لقد يئس الخاطئ، وتبلدت نفسه، وكرهت روحه الحق..

إن المفتاح الكبير الذي سلّمه الرب للكنيسة لتفتح به ملكوت السموات للخطاة، أينما شاءت وكيفما شاءت، فقدته. لقد ضاع المفتاح الكبير لما انشغلت الكنيسة بأموال الدنيا وأملاك العالم، وتلاهت عن خلاص الخطاة.

نعم، لا يستطيع الإنسان أن يعبد ربّين، ولا أن يخدم سيدين..

إن أي محاولة للجمع بين ملكوت الله، كهدف اختصاص المسيحية، مع أهداف أخرى، مثل المطالبة بحقوق خاصة للكنيسة للاشتراك في الحكم أو في إدارة سياسة الدولة، أو المطالبة بحقوق خاصة لتملك شيء من أمجاد هذه الدنيا، أو السعي ليكون للكنيسة شيء من النفوذ أو السيادة، هذه المحاولة معناها الخروج عن هدف الاختصاص في المسيحية، الذي هو ملكوت الله..

كذلك كل محاولة لاستخدام السلطان، سواء كان سلطان الدين أو السلطان الزمني، أو استخدام التهديد والوعيد، أو استخدام العقوبة أو المقاطعة لإجبار الخاطئ على التوبة، يعتبر هذا كله عمل اغتصاب وسلبًا لمشيئات الناس واستعبادهم باسم الدين والكنيسة..

وسيان، من حيث الخطورة والدوافع المنحرفة، أن تطلب الكنيسة القوة من السلطان الزمني، أو تحض على الاستهتار بقوة السلطان الزمني، لأن في الأول خروجًا عن اختصاص الكنيسة، وفقدانًا لمصدر قوتها الروحية ـ كما أثبتنا ـ..

وفي الثانية خروجًا على المنطق المسيحي ووصية الإنجيل، ووقوعًا في دينونة الله، لأن الكتاب يقول: "المقاومون (للسلطان) يأخذون لأنفسهم دينونة" ـ رومية 13: 12 ـ ..
وعلى الكنيسة أن تدع المواطن المسيحي يتحرك بحرية في كل الاتجاهات كما يشاء، وكما تمليه عليه تربيته ونشأته وثقافته، ويتحمل هو تبعة تحركه. وتظل الكنيسة فوق كل هذه التحركات جميعًا، تعمل في اختصاصها لخلاص نفسه وإهداء أقدامه في طريق ملكوت الله..
ويشهد التاريخ ويروي أنه كلما خرجت الكنيسة عن اختصاصات مسيحها، وبدأت تنزع إلى السلطان الزمني، وتجيّش الجيوش باسم الصليب، وزاغت وراء أموال الأغنياء، ارتمت في أحضان أصحاب النفوذ، وحاولت محاولات جدية وعنيفة للجمع بين السلطان الديني والسلطان الزمني، ودأبت على المطالبة بحقوق عنصرية وطائفية، فشلت المسيحية في تأدية رسالتها، ودب فيها الخصام والنزاع والوهن، وفقدت شكل مسيحها كمنادية بالتوبة، وضاع منها الخروف الضال.
ولما انشغلت بأمجاد الدنيا قُفل في وجهها باب الملكوت، وصارت في حاجة إلى من ينتشلها من ورطتها، ويردها إلى حدود اختصاصاتها الأولى.."(1)

***

هكذا تحدث رأس العقلاء وحكيم الحكماء ـ الأب متى المسكين ـ عن رسالة الكنيسة ـ كما حددها لها المسيح ـ عليه السلام ـ ..
كما تحدث عن الانقلاب على هذه الرسالة، والمطالبة "بحقوق عنصرية وطائفية"، على النحو الذي أفقد الكنيسة طبيعتها، وخرج بها عن اختصاصاتها الأولى..
وحذر من عاقبة هذا الانقلاب :"فشل المسيحية في تأدية رسالتها"..
نعم.. هكذا تحدث الأب متى المسكين عن الكنيسة ورسالتها.. وعن محاولات الانقلاب على هذه الرسالة.. وظل رافعًا لرايات النصح والإرشاد، دونما رهبة من الحيف الذي أصابه جزاء كلمة الحق التي أعلنها ودافع عنها هو وتياره اللاهوتي ـ في دير القديس أنبا مقار ـ ببرية شيهيت ـ ..
فكان ـ ولا يزال ـ النموذج للقائد الروحي.. والابن البار للكنيسة الوطنية المصرية.. الذي لم يستبدل بمسيحيتها المسيحية الأمريكية لمجلس الكنائس العالمي ـ كما صنع الآخرون ـ الذين سقطوا في مستنقع الطائفية العنصرية!..
لقد أدان "انشغال الكنيسة بأمجاد الدنيا.. ولهاثها وراء أموال الأغنياء ـ فضلاً عن تمويل الأعداء!!ـ .. ومحاولات "الجمع بين السلطان الديني والسلطان الزمني".. والعمل على "الاستهتار بقوة السلطان الزمني".. وأساليب "التهديد والوعيد".. والسعي للمطالبة بحقوق خاصة للكنيسة للاشتراك في الحكم أو في إدارة سياسة الدولة.. أو تملك شيء من أمجاد هذه الدنيا.."
ولقد وضع هذا الحبر العظيم ـ الأب متى المسكين ـ بهذه الكلمات التي استشهدنا بها ـ الدستور الذي ساد توجهات الكنيسة الشرقية تاريخيًا.. والذي انقلب عليه التيار الطائفي العنصري، الذي اختطف قيادة الكنيسة الأرثوذكسية منذ 14 فبراير سنة 1971م.

***

وبعد، فلقد اتخذتُ ـ في المشروع الفكري الذي توفرت عليه ـ هذا الموقف المتوازن، والحاسم من هذه القضية الخطيرة.. والحساسة.. والشائكة.. التي توضع مخططاتها الاستعمارية الآن في واقع الممارسة والتطبيق، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام..
ـ فالأحزاب العلمانية الكردية، التي تحكم في شمالي العراق.. والتي تشكو من تجزئة القومية الكردية بين أربع دول عربية وإسلامية ـ العراق.. وسوريا.. وتركيا.. وإيران ـ تتجاهل أن القومية العربية قد جزئت بين أكثر من عشرين دولة.. وتنكص ـ هذه الأحزاب ـ عن "الحل الإسلامي"، الذي يجمع كل القوميات الإسلامية في إطار جامعة الإسلام، فنحيا لكل هذه القوميات إحياء خصوصياتها القومية في إطار جامعة الحضارة الإسلامية وتكامل دار الإسلام ـ كما كان الحالي في التاريخ الإسلامي، قبل "فتنة التفتيت والتعصب القومي" ـ..
لقد نكصت هذه الأحزاب العلمانية الكردية ـ التي أقامت العلاقات مع الكيان الصهيوني منذ ستينيات القرن العشرين، على يد الملا مصطفى البرزاني (1903 ـ 1979م).. لقد نكصت على أعقابها، عندما حكمت تحت حماية الإمبريالية الأمريكية، وبدعم الصهيونية العالمية، حتى عن لغة القرآن الكريم ـ التي سبق وخدمها الأكراد عبر تاريخهم الإسلامي

المشرق ـ فتخرجت وتتخرج من مدارسهم وجامعاتهم عشرات الألوف الذين لم يدرسوا حرفًا واحدًا من لغة القرآن الكريم!!..

كما تحالفت ـ هذه الأحزاب الكردية العلمانية ـ مع الإمبريالية الأمريكية والصهيونية في مخطط العنصرية والتفتيت..

ـ وعلى جبهة التشيع الصفوي ـ الفارسي ـ.. هناك الذين جاءوا إلى العراق على ظهور الدبابات الأمريكية الغازية سنة 2003م.. ليفتتوا العراق ـ باسم الفيدرالية.. وليبيعوا ثرواته النفطية واستقلاله الوطني وحرمات ترابه العربي للإمبريالية الأمريكية لقاء الاستئثار بحكم العراق تحت حماية الأمريكان!..

ـ وعلى الجبهة المغاربية.. تعمل الأكاديمية الأمازيغية ـ التي أقامتها فرنسا الاستعمارية بباريس ـ على إحياء اللغة الأمازيغية.. وصناعة أبجدية لها.. واختيار إحدى لهجاتها، لتكون بديلاً للعربية، يفضي إلى سيادة الفرنسية بين الأمازيغ!!.. ناكصين بذلك عن الحقيقة التاريخية والحضارية التي تقول: إن الأمازيغ هم الذين نشروا العربية والإسلام في المغرب الكبير.. وأن العلماء ذوي الأصول الأمازيغية ـ ومنهم الإمام عبد الحميد بن باديس (1307 ـ 1359هـ ـ 1889 ـ 1940م) ـ هم الذين أعادوا الجزائر إلى أحضان العروبة والإسلام.. وهم الذين قادوا عملية التعري في مواجهة الفرنسة في بلاد المغرب العربي الكبير..

ـ وعلى الجبهة المارونية السياسية.. كلفت هذه المخططات لبنان حربًا أهلية دامية ومدمرة دامت خمسة عشر عامًا (1975 ـ 1990م) قبل أن تنتهي إلى وفاق هش بين الفرقاء الذين غلّبوا الطائفية على الانتماء القومي والحضاري الذي يسع الجميع..

ـ أما على الجبهة المصرية.. حيث تركز الإمبريالية والصليبية والصهيونية على تفتيت كنانة الله في أرضه.. فإن المعركة قائمة على قدم وساق.. وخاصة منذ انحياز قيادة الكنيسة الأرثوذكسية لهذا المخطط الطائفي العنصري الانعزالي، الذي يطمع إلى تغيير الخرائط.. والثوابت.. وهويات الحضارة والتاريخ!..

الأمر الذي يجعلنا نستنهض مواقف العقل والحكمة في أوساط هذه الأقليات، لمواجهة الخطر المحدق بالجميع!.

هوامش :

1- الأب متى المسكين (مقالات بين السياسة والدين) ص 7 - 13، 18و27 - 38 - الطبعة الأولى سنة 1977م - والطبعة الثانية سنة 1980م ـ دار مجلة مرقس ـ مطبعة دير القديس أنبا مقار.

15- الثمرات المرة للحلم العنصري المجنون!

وأخيرًا.. فإن الدرس الذي نود استخلاصه، في ختام، هذه الدراسة، والذي نريد أن يكون حاضرًا في أذهان الجميع ـ ونحن نتطلع إلى مستقبل وحدتنا الوطنية.. والقومية.. والحضارية ـ إنما يتمثل في الكلمات الحكيمة التي قالها الأنبا موسى ـ أسقف الشباب بالكنيسة الأرثوذكسية ـ والتي قال فيها:

"نحن ـ كأقباط ـ ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقي ـ "إثني" ـ لأننا مصريون.. كلنا أقباط.. يجري فينا دم واحد من أيام الفراعنة..

ونحن أقلية عددية فقط، وليس هناك شرخ بيننا وبين إخواننا المسلمين.. فنحن نسيج واحد، وسعداء بذلك، وهذه حماية استراتيجية لنا كأقباط..

نحن مصريون عرقًا.. ونحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية.. والثقافة الإسلامية هي السائدة الآن.. وأي قبطي يحمل في الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة، بل هي جزء من مكوناته.. ومصر دائمًا دولة مسلمة ومتدينة، ولكن دون تطرف..

ونحن نرفض المسيحية السياسية، لأن المسيح قال: "مملكتي ليست بالعالم".. ولو حدثت المسيحية السياسية تصبح انتكاسة على المسيحية..

وتقسيم مصر فكرة مستحيلة، وغير مسيحية، ولو فكرنا في ذلك معناه أننا تجهّز أنفسنا للإبادة.. إنها فكرة غبية.. فكرة صهيونية من أجل تفتيت مصر.."

نعم.. من هذه الكلمات الحكيمة ـ للأنبا موسى ـ نستخلص الدرس الذي نرجو أن يعيه الجميع.. وخاصة الشريحة التي سقطت في مستنقع الطائفية والانعزالية والعنصرية..

ـ فمصر كلها نسيج عرقي واحد.. وهويتنا الحضارية عربية وإسلامية..

ـ والمسيحية السياسية ـ التي أثمرت النزعة الطائفية العنصرية ـ التي تريد تغيير الهوية العربية الإسلامية لمصر ـ هي ـ كما يقول الأنبا موسى ـ "فكرة صهيونية غبية تجهّز المسيحيين للإبادة"!..

***

ولقد صادقت وقائع وحقائق المسيرة الطائفية، التي سادت بمصر في العقود الأخيرة، على نفاذ بصيرة الأنبا موسى.. فها هي الثمرات المرة والعواقب الوخيمة تحيق بالأقلية المسيحية جراء التعصب والطائفية والانعزال والاستقواء بالأعداء الخارجيين..

ـ فالمسيحية السياسية أثمرت الانعزالية التي سحبت جمهور المسيحيين من المجتمع ومؤسساته إلى "دولة الكنيسة"..

ـ وانخراط الكنيسة في الاهتمامات السياسية والنزعات الطائفية والأنشطة الدنيوية قد صرفها عن رسالتها الأصلية ـ الدينية ـ فحدث جفاف روحي بين أتباعها.. حتى الرهبان والأديرة غدت مؤسسات دنيوية، ومراكز إنتاج زراعي ـ إقطاعي ورأسمالي ـ .. وأصبح الرهبان ـ بدلاً من النسك والانقطاع عن العالم ـ "ميليشيات" يخوضون النزاعات المسلحة للاستيلاء على الأرض لحساب الأديرة ـ التي أصبحت "دوائر إقطاعية" للكنيسة التي غدت الإقطاعي الوحيد في مصر!..

ـ ولقد حدث ذلك الانقلاب، في مناخ إسلامي يشهد صحوة روحية وانتعاشًا للقيم الإيمانية.. الأمر الذي أفضى إلى ظاهرة التحولات من المسيحية إلى الإسلام على نحو غير مسبوق في التاريخ الحديث..

ـ وبسبب الاستقواء بالخارج المعادي.. والعزلة الطائفية.. وتحول الأقباط إلى ما يشبه "الجالية" التي تستمد نفوذها من الخارج.. وزيادة ضغط أقباط المهجر.. زاد التوتر الطائفي.. وزاد العنف.. وتلبست المنازعات الاجتماعية لبوسا طائفيًا دينيًا.. الأمر الذي أضعف الانتماء الوطني والحضاري لدى قطاعات واسعة من شباب الأقباط، وزاد عن معدلات الهجرة بينهم، على نحو كاد أن يفرغ أوساطهم من الكفاءات..

ـ وبعد أن كان حلم المشروع الطائفي هو الاستيلاء على مصر، بدعوى "تحريرها" من العروبة والإسلام.. إذا بأصحاب هذا الحلم المجنون يستيقظون على واقع بائس تتحدث فيه دراسات باحثيهم عن "انقراض الأقباط"!!

لقد كتب الدكتور كمال فريد اسحق ـ أستاذ اللغة القبطية بمعهد الدراسات القبطية ـ والذي يدعو إلى جعل اللغة القبطية اللغة القومية لمصر! ـ .. كتب عن انقراض الأقباط خلال القرن الواحد والعشرين.. فقال:

"إن نسبة المسيحيين المصريين تقل تدريجيًا، وذلك لأسباب ثلاثة:

أولها: الهجرة إلى الخارج.
ثانيها: اعتناق عدد كبير منهم الدين الإسلامي.
وثالثهما: أن معدل الإنجاب عند المسيحيين ضعيف، على عكس المسلمين.
وإن هؤلاء المسيحيين المصريين ـ لذلك ـ سينقرضون في زمن أقصاه مائة عام"(1)

وكتب الصحفي الأرثوذكسي سامح فوزي يقول:
"إن تعداد المسيحيين في المنطقة العربية يصل إلى ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر مليونًا(2).. ويتوقع بعض المراقبين أن يهبط هذا الرقم إلى ستة ملايين نسمة فقط بحلول عام 2020م، نتيجة موجات الهجرة المتوالية للمسيحيين، وهكذا تصبح المنطقة العربية على شفا حالة جديدة يغيب فيها الآخر الديني، ويصبح الإسلام هو الدين الوحيد والمسلمون هم وحدهم أهل هذه البلدان"(3)

ونشرت صحيفة "الحياة" دراسة في 2008/6/11م ـ ذكرت فيها الحقائق والأرقام التي تقول:
ـ إن مواليد المسيحيين المصريين ـ سنويًا ـ يبلغون 50.000 نسمة.
ـ وإن نسبة المتحولين من المسيحية إلى الإسلام ـ بمصر ـ سنويًا ـ ما بين 40.000 و50.000.
ـ وإن ارتفاع معدلات الهجرة بين الشباب المسيحي ـ مع قلة الإنجاب في أسرهم ـ يجعل انقراضهم وتفريغ المجتمع المصري منهم قدرًا محتومًا!(4)

***

هكذا بدأت مرحلة "الاعترافات".. بعد مراحل المزايدات على ارتفاع أعدادهم في هذه البلاد.. والزعم بأنهم يبلغون ـ بمصر وحدها ـ عشرين مليونًا!..
ـ تلك هي الثمرات المرة للحلم الطائفي العنصري المجنون.. وهذه هي نتائج الطمع في استلاب مصر من هويتها العربية الإسلامية..
لقد انقلب السحر على الساحر.. وعلى العقلاء أن يقارنوا بين حقائق هذا الواقع الذي أثمرته الطائفية والمسيحية السياسية وبين الحلم المجنون ـ لكبيرهم الذي علمهم الطائفية ـ والذي تحدث عنه في محاضرة الإسكندرية ـ بتاريخ 1972/7/18م ـ تلك التي حلم فيها بجعل مصر "فلسطين السليبة" و"الأندلس المفقود"!!

***

وإذا كنا ـ في مشروعنا الفكري ـ قد اتخذنا الموقف المتوازن، ودعونا إلى "الحل الحضاري"، ـ الجامع لكل الديانات.. والقوميات.. والمذاهب.. والأقطار ـ.. الحل الذي يحقق وحدة الأمة وتكامل دار الإسلام.. فإننا قد نبهنا دائمًا وأبدًا، على خطأ "التعميم والإطلاق" في الحكم على المكونات الدينية والقومية والمذهبية في الشرق الإسلامي.. انطلاقًا من المنهاج القرآني: {ليسو سواء}.. فاتحين الأبواب أمام تحالف واسع يضم كل الذين يعملون على وحدة الأمة ـ بقومياتها المتعددة ـ والانتماء للحضارة الإسلامية ـ بدياناتها المختلفة ـ.. ويطمحون إلى تحقيق تكامل دار الإسلام ـ التي تتمايز فيها الأوطان والأقطار والأقاليم ـ..
كما دعونا ـ وندعو ـ إلى "الوعي بالتاريخ".. وليس مجرد "قراءة التاريخ".. وإلى الرؤية التي تضع وقائع الفتنة الطائفية في مكانها من السياق العام لمخطط التفتيت لبلادنا.. وليس النظر التجزيئي لوقائع هذه الفتنة ومقولات رموزها..
ـ إن مصر هي كنانة الله في أرضه، وهي القلب والعقل وموطن الريادة والقيادة لمشروع النهضة الإسلامية.. وبدونها لا مستقبل للنهوض العرب، الذي بدونه لا مستقبل للنهوض الشرقي والإسلامي.. فوحدتها الوطنية فريضة تهم كل عالم الإسلام..
ولذلك، كان التركيز الإمبريالي الصهيوني الصليبي على تفتيت مصر شديدًا.. فلقد أعلنوا ـ في "استراتيجية إسرائيل": "إذا تفتت مصر تفتت الباقون"!!
ـ ولقد أصبحت مصر ـ إزاء هذا المخطط المعلن ـ بمثابة السفينة التي تتلاطم من حولها الأمواج والأعاصير.. ولابد من الضرب بيد من حديد على من يهدد سلامة سفينة الوطن في مثل هذه الظروف، وأمام هذه التحديات..
تلك "ضرورة حياتية".. و"منهاج نبوي"، علمنا إياه رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما قال:

"مثل القائم على حدود الله تعالى والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أسفلها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإننا ننقبها من أسفلها فنستقي.
قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعًا، وإن تركوهم غرقوا جميعًا" ـ رواه البخاري والترمذي والإمام أحمد ـ ..
ـ وإذا كان تهديد سلامة سفينة الوطن ـ مصر: كنانة الله في أرضه ـ هو المفكر الأكبر ـ بمعايير الواجبات والفرائض الحضارية ـ فإن تغيير هذا المفكر ـ مفكر النزعة الطائفية العنصرية الانعزالية ـ تتفاوت فيه المواقف والواجبات..
ـ فعلى الجماهير تغيير هذا المفكر بالقلب ـ أي الرفض السلمي، الذي يحاصر أصحاب هذه النزعة الطائفية بالكراهية الشعبية التي تدفعهم إلى الإنابة.. أو مغادرة السفينة التي يهددونها!..
ـ وعلى النخبة ـ من المسلمين والمسيحيين ـ أن يغيروا هذا "المفكر الطائفي" باللسان وإعلان الإدانة لمخططاته وتطبيقاته في البلاد.. دونما "جبن" أو "نفاق"!..
ـ أما الدولة والسلطة، فإن عليها واجب التغيير لهذا المفكر "باليد" ـ أي القوة ـ والضرب بيد من حديد على الشرذمة الطائفية التي تهدد سلامة هذا الوطن، الذي علمنا رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أهله خير أجناد الأرض، لأنهم في رباط إلى يوم الدين..

***

ـ لقد قبلنا ـ من فرط السماحة ـ بل والتهاون ـ أن تكون هذه الأقلية ـ كما قال شيخنا محمد الغزالي (1335 ـ 1416هـ ـ 1917 ـ 1996م) عليه رحمة الله ـ :
"أسعد أقلية في العالم"..
تملك ـ وهي ثُمن السكان ـ في أوائل القرن العشرين ـ 30% من ثروة البلاد!..
وتملك ـ اليوم ـ نحو 60% من ثروة القطاع الخاص في البلاد!
قبلنا ذلك.. من فرط السماحة.. والتهاون والتفريط!..
ـ لكننا لا يمكن أن نقبل أن تكون هذه الأقلية:
"أكثر الأقليات صفاقة في العالم"!
وذلك عندما تسعى إلى اختطاف كل الوطن من أهله.. ولغته.. وثقافته.. وحضارته.. ومن الرسالة المقدسة التي حملتها مصر ـ وتحملها ـ إلى العالمين.. رسالة العروبة والإسلام..

***

تلك هي رؤيتنا.. وهذه هي دعوتنا.. التي نصادق عليها.. ونخاصم فيها.. ولا نألوا جهدًا في دعمها، والمرابطة على ثغورها.. كما نستطيب أية تضحيات في سبيل نصرتها..
وتلك هي رسالة هذه الصفحات.. بها بلّغنا الدعوة.. وأقمنا الحجة.. وأزلنا الشبهة..
والله شهيد على هذا البلاغ.

---

* هوامش:

1ـ صحيفة (المصري اليوم) في 2007/5/12م.
2ـ تؤكد الإحصاءات الأجنبية المحايدة أن تعداد المسيحيين في العالم العربي لا يتجاوز الثمانية ملايين ـ انظر: فيليب فارج، رفيق البستاني (أطلس معلومات العالم العربي) طبعة القاهرة ـ سنة 1994م.
3ـ صحيفة (وطني) في 2007/5/27م.
4ـ أحمد دياب ـ دراسة عنوانها: "هل يخلو الشرق الأوسط من مسيحييه؟" ـ صحيفة "الحياة" ـ لندن ـ في 2008/6/11م.